مرحلة السلام
بين صلح الحديبية وفتح مكة

إعداد

د/ شرف الدين أحمد آدم

الأستاذ المساعد بقسم الثقافة الإسلامية

كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

جامعة الأزهر

مرحلـة السلام بين صلح الحديبية وفتح مكة

شرف الدين أحمد آدم

قسم الثقافة الإسلامية

كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

sharafeldinhasan133@azhar.edu.eg

الملخص

السلام مطلب مهم في حياة الأمم والشعوب، حيث تحرص عليه الأمم الواعية وتسعى إلى تحقيقه، وتحرص عليه كل قيادة عاقلة وواعية بما يحققه السلام من مكاسب وإنجازات تسعى الشعوب دائمًا إلى تحصيلها، ونظرًا للحالة التي تنعم فيها أمتنا بالأمن والسلام في الوقت الراهن ، فقد رأيت أنه من الأهمية بمكان أن أعرض نموذجًا مشرقًا من سيرة سيد الأولين والآخرين، يظهر فيه الاستغلال الأمثل لهذه المرحلة المهمة في حياة الأمة، لقد كان صلح الحديبية تمهيدًا لمرحلة عظيمة في تاريخ الدعوة، فلقد كان الصلح نصرًا وفتحًا وانتشارًا لدين الله وإظهارًا له على كافة الأديان.

والسلام في حد ذاته مرحلة بناء وتنظيم للمجتمع، لاستكمال عناصر القوة اللازمة للمواجهة إذا دعت الضرورة لذلك، وهو مرحلة مهمة لإعادة ترتيب الأوراق، والانطلاق حسب الأولويات التي تم ترتيبها والاتفاق عليها لقد استمرت هذه الهدنة بعد توقيع صلح الحديبية من العام السادس للهجرة حوالي اثنين وعشرين شهرًا، فماذا فعل النبي ﷺ خلال هذه المرحلة ؟

لقد زاد في بناء الدولة فغزا خيبر، وأرسل الرسل لدعوة الملوك والأمراء والرؤساء في عصره، وبعث السرايا إلى قبائل العرب، وأرسل الجيش في غزوة مؤتة من عام ٨هـ، وكذلك سرية ذات السلاسل ، واستمر العمل على هذه الوتيرة حتى نقضت قريش عهدها مع النبي ﷺ فكان فتح مكة في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة، وهذا هو الاستغلال الحقيقي للسلام؛ لبناء النفوس وتقوية أركان الدولة.

وإن حرص النبي الكريم ﷺ على تحقيق السلام يعكس مدى أهمية هذه المرحلة لنشر الدعوة وتوطيد أركانها، هذا من جانب، ومن جانب آخر يبرهن على أن الحرب في الإسلام ليست مقصودة لذاتها، وإن الوسائل التي شرعها الإسلام لنشر دين الله في الأرض نبيلة نبل الإسلام ذاته .

ولعلنا أدركنا الآن كيف استفاد النبي ﷺ من مرحلة السلام التي وقعت بين صلح الحديبية وفتح مكة بعد أن نقضت قريش عهدها مع النبي ﷺ وحلفائه، كيف أمَّن دولته، وكيف وسَّع في الدعوة إلى دين الله، فخرج به خارج نطاف الجزيرة العربية، لأنه دين عالمي، جاء للناس كافة في شتى بقاع الأرض بموجب قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

ولعلنا أدركنا أيضًا أن الأمة اليوم مطالبةٌ بالتأسي بالنبي القائد ﷺ في استغلال مراحل السلام التي تعيشها، فعلى الحكومات أن تسعى لتأمين مستقبل شعوبها وأن تحصن نفسها، وأن تبني حضارتها، وتؤمِّن للأجيال القادمة حياة كريمة يملؤها العزة والفخار، وأن تمتلك من قوة الردع الاستراتيجي ما يدفع عنها أطماع أعدائها، وكل من تسول له نفسه بالاعتداء عليها أو على كرامة أبنائها .

كلمات افتتاحية: السلام - صلح - الحديبية - فتح - مكة

Peace phase between Treaty of Hudaybiya and Conquest of Makkah

Sharaf Al-Din Ahmed Adam
Department of Islamic Culture
College of Islamic Da'wa in Cairo
sharafeldinhasan133@azhar.edu.eg

Abstract

Peace is an important requirement in the life of nations and people, as conscious nations strive to achieve it, and every rational and conscious leadership is keen on it for the gains and accomplishments of peace that people are always striving to acquire. Given the situation in which our nation is blessed with security and peace at the present time, I have realized that it is important to present a bright example of the biography of the Master of those of old, and those of later times, our Prophet Muhammad, in which the optimal exploitation of this important phase in the life of the nation appears. Treaty of Hudaybiya was a prelude to a great phase in the history of the Da'wa "Islamic Call". Treaty of Hudaybiya was a victory, a conquest, a spread of the religion of Allāh "Islamic Religion", and a manifestation of Islam over all the religions.

Peace in itself is a phase of building and organizing the society in order to complete the elements of the force needed for confrontation, if necessary. Also, Peace is an important phase for reordering the goals, and going ahead according to the priorities that were arranged and agreed upon. This truce continued after the signing of Treaty of Hudaybiya, took place in the year of ٦ AH, about twenty-two months. So, what did the Prophet – Peace Be Upon Him – do during this phase?

Prophet Muhammad – Peace Be Upon Him – increased the building of the state so He conquered Khaybar, sent the messengers to convert the kings, princes, and presidents of his era into Islam, sent the military campaigns "sarāyā" to the Arab tribes, and sent the army in the Battle of Mu'tah in the year of ٨ AH, as well as the Campaign of Dhatas Salasil. Achievements continued at this pace until the Quraysh broke its covenant with the Prophet – Peace Be Upon Him –, so Makkah was

conquered in Ramadan, ٨ AH. This is the real exploitation of peace to build souls and strengthen the pillars of the state.

The keenness of the Noble Prophet – Peace Be Upon Him – to achieve peace reflects, on the one hand, the importance of this phase for spreading the Da'wa "Islamic Call" and consolidating its pillars. On the other hand, it proves that the war in Islam is not intended for its own sake, and that the means enacted by Islam to spread the religion of Allāh "Islamic Religion" in the land are as noble as Islamic religion itself.

Perhaps we have now realized how the Prophet – Peace Be Upon Him – benefited from the peace phase that occurred between Treaty of Hudaybiya and the conquest of Makkah after Quraysh broke its covenant with the Prophet Muhammad – Peace Be Upon Him – and His allies, how he secured his state, and how he expanded the Da'wa "Islamic Call" to the religion of Allāh "Islamic Religion". So, He – Peace Be Upon Him – called for embracing Islam outside the Arabian Peninsula, because it is a universal religion, which revealed to all people in all parts of the earth as Almighty said: And We have sent you not but as a mercy for the `Alamin.

Perhaps we also realized that the nation, nowadays, is required to follow the path of the Prophet, the leader, Muhammad – Peace Be Upon Him – in exploiting the phases of peace in which they live. Governments should strive to secure the future of their peoples, to protect themselves, to build their civilization, and to secure for the future generations a decent life filled with pride and honor. Governments should possess the power of strategic deterrence in order to deter the interests and ambitions of their enemies and to prevent any attempts against the governments or their societies' dignity.

Keywords: Peace – Treaty – Hudaybiya – Conquest – Makkah

□

توطئة وتمهيد:

الحمد لله ربع العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه، أشهد أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة وقضى على الضلالة والجهالة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى من اتبع هداه وسار على نهجه وسلك طريقه واقتفى أثره ومشى في دربه إلى يوم الدين ... **أما بعد**؛؛؛

فالسلام مطلب مهم في حياة الأمم والشعوب، حيث تحرص عليه الأمم الواعية وتسعى إلى تحقيقه، وتحرص عليه كل قيادة عاقلة مدركة لأبعاد المواقف وما يحققه السلام من أهداف وإنجازات تسعى الشعوب إلى تحصيلها .

والسلام في حد ذاته مرحلة بناء وتنظيم للمجتمع، لاستكمال عناصر القوة اللازمة للمواجهة إذا دعت الضرورة لذلك، وهو مرحلة مهمة لإعادة ترتيب الأوراق، والانطلاق حسب الأولويات التي تم ترتيبها والاتفاق عليها .

ومن خلال مطالعة سيرة النبي الكريم رأينا أن النبي ﷺ قد سعى جاهدًا لتحقيق السلام ليتجه إلى بناء أمته، وتبليغ دعوة الحق للناس، وقد بدا هذا واضحًا في صلح الحديبية من العام السادس للهجرة؛ فهو الذي قال حينئذٍ: ﴿ والذي نفسي بيده لا يسالونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ﴾ [1] .

لقد كانت مدة هذا الصلح حين تم الاتفاق عليه عشر سنين، وقد انطوى على ظلم وإجحاف بحق المسلمين ومع هذا فقد قبله النبي الكريم ﷺ حتى إن بعض الصحابة لم يرض عن مسار هذا الصلح، فها

(١) رواه البخاري في الصحيح عن المسور بن مخرمة، في كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، برقم (٢٧٣١) .

هو سيدنا عمر بن الخطاب كما يروي الشيخان في صحيحيهما: أن عمر بن الخطاب قال: ﴿ فأتيت نبي الله ﷺ فقلت ألست نبي الله حقًا؟ قال: بلى. قلت: ألست على حق وعدونا على باطل؟ قال: بلى. قلت: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلي. قلت: ففيم نعطي الدنية في ديننا إذن، قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى. أفاخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟ قلت" لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به، فلم يصبر عمر حتى أتى أبا بكر ﷺ فسأله مثل ما سأله النبي ﷺ، فقال له: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يعصي ربه ولن يضيعه الله أبدًا، فما هو إلا أن نزلت سورة الفتح على رسول الله ﷺ فأرسل إلى عمر فأقرأه إياها. فقال: يا رسول الله، أو فتحٌ هو؟! قال: نعم، فطابت نفسه ورجع ﴾ (١) .

ثم إن النبي ﷺ أقبل على أصحابه فقال لهم: قوموا فانحروا ثم أحلقوا . وكرر ذلك ثلاثًا . فوجم جميعهم وما قام منهم أحد .

ولقد أراد الحق . جلال وعلا . أن يبرز الفرق واضحًا بين وحي النبوة وتدبير الفكر البشري، بين توفيق النبي المرسل وتصرف العبقري المفكر، كما يقول أحد الباحثين المعاصرين: (فمن هنا أعطى المشركين كل ما سألوه من الشروط، وتساهل معهم في أمور لم يجد أحد من الصحابة ما يسوغ التساهل فيها ... لاسيما من الشرط الذي أملاه سهيل بن عمرو: من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا مع محمد لم يرد عليه ... وازداد ضيق الصحابة لما أقبل أبو جندل "ابن سهيل بن عمرو" فارًا من المشركين فرده النبي ﷺ إلى المشركين، وكذلك فعل مع أبي بصير الذي أسلم بعد إبرام صلح الحديبية) (٢) .

(١) متفق عليه، البخاري في الصحيح، في كتاب: الجزية، باب: إثم من عاهد ثم غد، برقم (٣١٨٢)، ومسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية في الحديبية، برقم ٩٤ (١٧٨٥)، واللفظ لمسلم .

(٢) فقه السيرة، د/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص ٢٤٩، ٢٥٠، ط. السابعة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

ولقد قال النبي . صلوات ربي وسلامه عليه . عبارة لأبي جندل تلخص شخص النبي الكريم وتظهر وفاءه بالعهود مهما كانت، لقد قال له: يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنَّا أعطينا القوم عهودًا، ولن نغدر بهم .

لقد تم الصلح بهذه الطريقة المجحفة التي أدهشت الصحابة الكرام وأثارت حفائظهم واستغرابهم، ولكن زال هذا كله بمجرد نزول سورة الفتح التي تنزلت عقب الفراغ من إبرام الصلح .

(وتجلى للصحابة ﷺ أن احتمالهم لتلك الشروط كان عين النصر لهم، وأن المشركين ذلوا من حيث تأملوا العز، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والغلبة، وظهر من وراء ذلك كله النصر العظيم لرسوله والمؤمنين دون أن يكون في ذلك أي اقتراح للعقول والأفكار) [1] .

لقد كان صلح الحديبية تمهيدًا لمرحلة عظيمة في تاريخ الدعوة، فلقد كان الصلح نصرًا وفتحًا وانتشارًا لدين الله وإظهارًا له على كافة الأديان .

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [2].

لقد استمرت هذه الهدنة بعد توقيع صلح الحديبية من العام السادس للهجرة حوالي اثنين وعشرين شهرًا، فماذا فعل النبي ﷺ خلال هذه المرحلة التي اتسمت بالسلام بينه وبين ألد أعدائه؟

لقد زاد في بناء الدولة فغزا خيبر، وأرسل الرسل لدعوة الملوك والأمراء والرؤساء في عصره، وبعث السرايا إلى قبائل العرب، وأرسل الجيش في غزوة مؤتة من عام ٨هـ، وكذلك سرية ذات السلاسل عقيب

(١) فقه السيرة، د/ البوطي، ص٢٥٠، م. س .

(٢) سورة الفتح، الآيتان (٢٧، ٢٨) .

عودة الجيش من مؤتة بقيادة عمرو بن العاص ﷺ، واستمر العمل على هذه الوتيرة حتى نقضت قريش عهدها مع النبي ﷺ فكان فتح مكة في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة، وهذا هو الاستغلال الحقيقي للسلام؛ لبناء النفوس وتقوية أركان الدولة.

وإن حرص النبي الكريم ﷺ على تحقيق السلام يعكس مدى أهمية هذه المرحلة لنشر الدعوة وتوطيد أركانها، هذا من جانب، ومن جانب آخر يبرهن على أن الحرب في الإسلام ليست مقصودة لذاتها، وإن الوسائل التي شرعها الإسلام لنشر دين الله في الأرض نبيلة نبل الإسلام ذاته .

وكيف يقال إن الإسلام شرع الحرب لإجبار الناس على الدخول فيه، والإسلام نفسه لا يقبل إيمان المكره، بل ينكر هذا الإكراه، ففي محكم التنزيل ورد قوله . جل وعلا .: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [١] .

وقولـه جلـت قدرتـه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩ ﴾ [٢] .

وغاية ما في الأمر أن القتال في الإسلام . من هذا النوع . لا قتال المعتدي . إنما كان لأحد الأمور الآتية:

- لحفظ الدعوة الإسلامية وحمايتها .
- للحيلولة بين أولئك الطغاة وبين مقاومة الدعوة .
- لإبلاغ كلمة الحق للناس، والمحافظة عليها لتكون كلمة الله هي العليا.

وسوف نرى في طيات هذا البحث ما يجلي هذه الحقائق ويضع بين أيدينا منهاجًا قويمًا للتعامل مع مثل هذه المرحلة التي تمر بها الشعوب والأمم .

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥٦) .

(٢) سورة يونس، الآية (٩٩) .

وسوف ينتظم في سلك خطة هذا البحث العناصر الآتية:

المبحث الأول: حدود علاقة دولة الإسلام بالأمم الأخرى وقت السلم .

المطلب الأول: الأسس التي وضعها الإسلام لتنظيم هذه العلاقة .

١ . استخدام الدبلوماسية مع الأمم الأخرى .

٢ . الوفاء بالعهود والمواثيق كما ورد في صلح الحديبية وغيرها .

٣ . احترام الكرامة الإنسانية .

المطلب الثاني: التسامح والبر مع غير المسلمين .

المطلب الثالث: إبرام العقود والمصالحات مع غير المسلمين .

المطلب الرابع: دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام عن طريق الكتب والرسائل .

المبحث الثاني: الإعداد والاستعداد الدائم لمناوئي الدعوة في الجبهتين الداخلية والخارجية، ويتضمن المطالب الآتية:

المطلب الأول: التأكيد على حرمة موالاة الأعداء .

المطلب الثاني: تجهيز وإعداد قوة الردع الاستراتيجي المطلوب للمواجهة.

المطلب الثالث: إعلان الجهاد ضد المعتدين أو المتآمرين .

والله أسأل أن يمنحني الفهم والقدرة على تغطية هذه العناصر وإني لاستمد منه سبحانه المدد والعون والتوفيق والسداد، وأن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه وأن يتقبله مني، وأن ينفع به المسلمين إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د/ شرف الدين أحمد آدم

قسم الثقافة الإسلامية

بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

المبحث الأول
حدود علاقة دولة الإسلام بالأمم الأخرى وقت السلم

تعريف العلاقة:

العلاقة في اللغة: هي الصداقة والحب اللازم للقب، وما تعلق به الإنسان من صناعة وغيرها ... والعِلاَّقة ... ما يعلق به السيف ونحوه .

يقال: علق بقلبه علاقة: والعلاقة الهوى، والحب اللازم للقلب .

ويدور معنى العلاقة على الحب والصداقة والهوى [١] .

ومن هذا نأخذ المعنى الاصطلاحي .. حيث إن الأصل في العلاقات الدولية أن تكون قائمة على المحبة بين الدول، والرفق في التخاطب والإحسان في التعامل، وإبداء الرأي في ظل الموعظة الحسنة، والتخلق بالأخلاق الكريمة .

وقيل: هي الجهد المدروس والمطرد الهادف إلى إنشاء وتدعيم حسن الصداقة والتفاهم المتبادل بين الدول [٢] .

وبهذه العلاقة تعيش الدول في سلام وأمان، وهذا هو المبدأ الأساسي الذي يجب أن تتحلى به الدول في ظل العلاقات الدولية، وأما إذا انعدم السلام والأمان فلم يكن هناك إلا الخراب والدمار في ظل الحروب والقتال، وفي ذلك يقول ﷺ: ﴿ لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ﴾ [٣] .

الغاية الأساسية في العلاقات الدولية:

ولقد كانت الغاية الأساسية في العلاقات الدولية هي: الأمن والأمان، والسلم والسلام، والعدل والإحسان، ولا ستحقق ذلك إلا في

(١) لسان العرب، لابن منظور، ج١٠ ص٢٦٢، والمعجم الوسيط، إبراهيم أنيس، ج٢ ص٦٢٢ .
(٢) العلاقات العامة، كلير أوستن، ص ١٢ .
(٣) رواه مسلم في كتاب: الجهاد، باب: كراهية تمني لقاء العدو، برقم (١٧٤١)، وكذلك رواه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: كراهية تمني لقاء العدو، برقم (٢٦٣١) .

الإسلام لأنه هو الأساس، ولا أساس غيره حسب النص القرآني القائل: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (١) .

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢) .

ويترتب على ذلك: أن دخول الناس في الإسلام كغاية أساسية للدعوة الإسلامية لا يصاحبه عنف ولا كراهية، ولا سباب، ولا لعائن ولا حرب ولا قتال، وإنما يصاحبه لين في المعاملة، ولطف في العلاقة، وإحسان في المعاشرة، وذلك هو الأصل في نظر الدعوة الإسلامية وفي تحقيق العلاقات الدولية الإسلامية، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (٣) .

وعلى ذلك: قد يثار سؤال هو: مادام الأمر على نحو ما سبق في العلاقات الإنسانية في الإسلام ... فلماذا كانت حروب رسول الله ﷺ التي بدأها بغزوة بدر وختمها بغزوة تبوك؟ .

وللإجابة على ذلك نقول: إن ذلك لم يكن لإرغام الناس في الدخول في الإسلام، وإنما كان سببه اضطهاد أعداء الإسلام له ولرسول الله ﷺ، وما كانت الغزوات إلا لدفع هذا الاضطهاد .

ويشهد لذلك قول الأخنس بن شريق لأبي جهل لما تراءى الجمعان يوم بدر ... أترى محمدًا يكذب؟ .

قال أبو جهل: كيف يكذب على الله، وقد كنا نسميه الصادق

(١) سورة آل عمران، الآية (١٩) .
(٢) سورة آل عمران، الآية (٨٥) .
(٣) سورة البقرة، الآية (٢٥٦) .

الأمين، لأنه ما كذب قط ... ولكن . وهذا سبب العداء . كانت في عبد مناف السقاية، والرفادة، والمشورة، ثم تكون فيهم النبوة؛ فأي شيء بقى لنا ...؟ [١] .

وتقوم هذه العلاقات الدولية وقت السلم على أساس متين وأصل واضح بينه رب العزة سبحانه بقوله: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [٢] .

جاء في تفسيره هذه الآية الكريمة: (إن الله سبحانه وتعالى لا ينهى عن بر أهل العهد والإحسان إليهم، من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم، ولم يعاونوا على إخراجهم، قبل همِّ: خزاعة، وبنوا الحارث بن عبد مناف، ... وغيرهم، ممن كانوا عاهدوا رسول الله ﷺ على ترك القتال والإخراج من الديار، فأمر الله رسوله بالبر بهم والوفاء لهم إلى مدة أجلهم .

سبب نزول هذه الآية الكريمة: (ما روي أن عبد الله بن الزبير { ... قال: قدمت قُتَيْلة بنت عبد العزي على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا "ضباب وأقط وسمن" وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها، حتى أرسلت إلى أختها عائشة، أن سلي رسول الله ﷺ في ذلك، فسألته، فنزلت الآية) [٣] .

وفي رواية أخرى ... أن أسماء < قالت: ﴿ قدمت أمي وهي مشركة، في عهد قريش ومدتهم إذ عاهدوا النبي ﷺ، مع ابنها، فاستفتيتُ

(١) الإمتاع، للمقريزي، ج ١ ص ٧٢ .

(٢) سورة الممتحنة، الآية (٨) .

(٣) فتح القدير، للشوكاني، ج٥ ص٢٦٤، وكذلك: تفسير المراغي، ج٠ ص٧٠، وأسباب النزول، للواحدي، ص٤٤٤، والسيوطي في الدر المنثور، ج٦ ص ٢٠٥ .

رسول الله ﷺ، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها، قال: نعم صلي أمك ﴾ [1] .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد من البر والوصال في حالة السلم، بل تعداه إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد أجاز الإسلام للمسلمين إجازة الأفراد من أهل الشرك حتى ولو كانوا في حالة الحرب، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [2] .

يقول ابن كثير:

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ أي استأمنك فأجبه إلى طلبه ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ أي القرآن الذي تقرؤه عليه، وتذكر له شيئًا من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله ﴿ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه) [3] .

ولذلك فإنه كان يأتي لرسول الله ﷺ كثير ممن لا عهد لهم ولا ذمة، ومع ذلك كان يعطيهم الأمان، فلقد جاءه يوم الحديبية عروة بن مسعود، وسهيل ابن عمرو، ومكرز بن حفص، واحدًا بعد الآخر، حتى رأوا من إجلال المسلمين لرسول الله ﷺ ما بهرهم، وكان ذلك من أكبر أسباب هداية بعضهم .

(١) رواه البخاري في كتاب: الأدب، باب: صلة المرأة أمها ولها زوج، ص ١١٦٠، رقم (٥٩٧٩) .
(٢) سورة التوبة، الآية (٦) .
(٣) ابن كثير، ج٢ ص٣٣٧ .

وعلى كل: فإن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة، أو تجارة، أو طلب صلح، أو مهادنة، أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أمانًا ... أعطي ذلك مادام مترددًا في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه سالمًا، فهل هناك سماحة تقارن أو تعادل بسماحة الإسلام .

ولم تنشأ هذه العلاقة الإنسانية في سماحة الإسلام وقت السلم من فراغ، وإنما لها جذور عميقة أساسها القيم الإنسانية، والمبادئ الأخلاقية ... التي تربى عليها رسول الله ﷺ وربى أصحابه عليها، وتتمثل هذه المبادئ وتلك الأخلاق والقيم في منهج وضع قواعده الإسلام بيانه في المطالب الآتية:

المطلب الأول
الأسس التي وضعها الإسلام لتنظيم هذه العلاقة

ولقد وضع الإسلام أسساً للعلاقات الدولية أساسها احترام الدعوة الإسلامية، وحرية عملها، وتوقير القائمين عليها، فمن قبلها عن رضى ورغبة وأسلم، فقد أصبح واحدًا من جماعة المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن رفضها واستأمن فهو آمنٌ في سربه لا يصيبه أي مكروه من المسلمين، وكذلك من وادع قبلت موادعته، ومن صالح قبل منه الصلح، وتلك هي حقيقة العلاقة، ويرجع أصل ذلك إلى قيم ومبادئ أخلاقية كثيرة منها:

١ . استخدام الدبلوماسية مع الأمم الأخرى .

٢ . الوفاء بالعهود والمواثيق .

٣ . احترام الكرامة الإنسانية والتزام الفضيلة .

وفيما يلي بيان ذلك:

١ ـ استخدام الدبلوماسية مع الأمم الأخرى:

إن مفهوم الدبلوماسية في الإسلام تختلف عن غيرها شكلاً وموضوعًا، ونحن في هذه العجالة السريعة في بحثنا المتواضع هذا ... سوف نلقي الضوء على مفهوم الدبلوماسية عند المسلمين وغيرهم، كما سنلقي الضوء على ما يتعلق بالعلاقات الدولية من خلال سيرة الرسول ﷺ، وأول ما يطالعنا في هذا الصدد قول الله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [1] .

فقد روي في سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله ﷺ مشى في زيارة عبد الله بن أبي بن سلول، ومعه أصحابه، وكان ﷺ راكبًا حمارًا، فما أن وصلوا إليه حتى قال عبد الله لرسول الله: إليك عني لقد آذاني ريح حمارك، فقال أصحاب رسول الله، والله لحمار رسول الله أطيب ريحًا منك، فغضب لعبد الله رجال من قومه، وغضب لرسول الله أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فنزلت هذه الآية للإصلاح بينهما بالعدل والقسط) [2] .

وعلى كل: فإن مفهوم الدبلوماسية الإسلامية في عهد رسول الله ﷺ لا يأخذ طابع الانتحار الأخلاقي أو التضليل الفكري من أجل كسب مادي أو مصلحة شخصية أو دولية على حساب دولة أخرى، أو التأثير في

(١) سورة الحجرات، الآيتان (٩، ١٠) .

(٢) تفسير ابن كثير، ج٤ ص٢١١ .

سياسة الدولة من غير وجه حق، كما هو الحال في المفهوم السابق .

فالدبلوماسية الإسلامية في عهد رسول الله ﷺ هي محاولة التعامل بالحسنى واللطف واللين لتبليغ دعوة الإسلام، فَمَنْ قَبِلها وأسلمَ من دُعي إليها من كبار رجال الدولة بقي في سياسة دولته وملكه وسلطانه مادام يقيم شرع الله تعالى، وإن أبى فلا تدخُّل في شئون دولته، أو سياسة إمارته، غير أنه يدفع الجزية بالتي هي أحسن .

وما على رئيس الدولة الإسلامية إلا ابتعاث سفير ينوب عنه في تنظيم الدستور الأخلاقي لمن أسلم، وما حدث في سفارة سيدنا مصعب بن عمير إلى المدينة مع أهل العقبة الأولى بعد إسلامهم لهو خير دليل على ذلك .

مهمة الدبلوماسي في الإسلام:

وتتلخص مهمة السياسي أو الدبلوماسي في الإسلام فيما يلي:

لعل ما أرسل من أجله سيدنا مصعب بن عمير مع أهل العقبة الأولى إلى المدينة يوضح لنا هذه المهمة الإسلامية والتي كانت متمثلة في:

١ . تحفيظ المسلمين القرآن الكريم .

٢ . تعليمهم الإسلام وتفقهيهم أمور دينهم .

٣ . إمامتهم في الصلاة .

٤ . وبالإضافة إلى ما قام به مصعب بن عمير ﷺ فإن السياسي والدبلوماسي في الإسلام يقوم بتصريف الأمور والعلاقات والمصالح في كافة المعاملات والعلاقات بين الدول الإسلامية بعضها وبعض، أو بين الدول الإسلامية وغيرها من بقية الدول التي لا تدين بالإسلام.

٥ . يقوم . الدبلوماسي . باستغلال الفرص المتاحة له والوسائل المختلفة في

عرض الإسلام ومبادئه وأخلاقه ومعاملاته وعقيدته وعباداته بأسلوب سهل ميسر حتى يرغب في الإسلام .

وهكذا: كان عمل سيدنا مصعب بن عمير الذي اتخذه رسول الله ﷺ أول سفير في الإسلام، فكانت دبلوماسيته في التعامل مع الناس لا تنكر، ولا سياسته في حل المنازعات لا تستنكر، حتى أسلم كثير من أهل المدينة، ومن دخل في الإسلام من رؤساء القبائل أو العشائر بقي على حاله في قومه، ومن أعرض عن ذلك لم يتعرض لهم المسلمون بسوء أو أذى ما داموا يدفعون الجزية .

مظاهر وصور الدبلوماسية في عهد الرسول وخلفائه:

كانت الدبلوماسية الإسلامية في عهد رسول الله ﷺ وخلفائه . رضوان الله عليهم . متكاملة في الشكل والمضمون .

أما من حيث الشكل فقد تجلى فيها ثلاثة مظاهر:

المظهر الأول: أن رسول الله ﷺ كان ينتقي ويختار سفراءه المبعوثين إلى الملوك والأمراء، فما أرسل من سفير إلا بلسان من أُرسل إليه، ودليل ذلك ... أن رسول الله ﷺ عندما أرسل إلى المقوقس حاكم مصر سفيره حاطب بن أبي بلتعة، صار بينهما حوار طويل، اشتدت فيه لهجة التخاطب والحوار من جهة السفير بالغلبة، فقال الحاكم مقالته المشهورة: (أحسنت ... أنت حكيم أنيت من عند حكيم) [1] .

ولقد تعلم كل سفير لغة البلد التي سيرسل إليها قال ابن سعد: (وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذي بعث إليهم) [2] .

المظهر الثاني: الخاتِمُ .. أي الختم الذي كان يختم به ﷺ كتبه ساعة

(١) السيرة الحلبية، ج٣ ص٢٩٦ .

(٢) طبقات ابن سعد، ج١ ص٣٢١ .

إرسالها إلى الملوك والأمراء، جاء في السيرة الحلبية: (أنه لما أراد رسول الله ﷺ أن يكتب للملوك قيل له: يا رسول الله إنهم لا يقرؤون كتابًا إلا إذا كان مختومًا، أي ليكون في ذلك إشعار بأن الأحوال المعروضة عليهم ينبغي أن تكون مما لا يطلع عليها غيرهم، فكانت تكتب الرسالة وتطوى، ويجعل عليها نحو شمع وغيره ويختم فوق ذلك .

فاتخذ ﷺ أول الأمر خاتمًا من ذهب، ثم حرم الذهب فطرحه، فاتخذ خاتمًا من فضه، وكان نقشه محمد رسول الله في ثلاثة أسطر هكذا وظل هذا الخاتم مع رسول الله ﷺ حتى قبض، فكان في يد أبي بكر حتى قبض، ثم أخذه عمر فكان في يده حتى قبض، فأخذه عثمان فسقط في بئر (أريس) كان يحفره للمسلمين، فالتمسوه ثلاثة أيام فلم يجدوه) [(١)] .

المظهر الثالث: **حسن المظهر**: فمن مظاهر الدبلوماسية المتعارف عليها حسن المظهر والمنظر، ولقد سجل التاريخ الإسلامي أن النبي ﷺ كان إذا قدم عليه الوفود لبس أحسن ثيابه وأجملها، حتى أنه كان يأمر أصحابه بذلك .

أما من حيث المضمون: فإن مضمون الدبلوماسية الإسلامية كان يرتكز على الدعوة الإسلامية التي بُعث بها سيدنا محمد ﷺ، ويتجلى ذلك في الكتب والسفراء الذين أرسلهم الرسول ﷺ لملوك وأمراء عصره، والكتب والسفراء المرسلة للحكام جزء من الدبلوماسية .

فإن من يقرأ كتبه ﷺ يجد في مضمونها الدعوة التي كلفه الله بها، وأمره بتبليغها للناس جميعًا، وذلك لأن تبليغ الدعوة إلى الملوك والأمراء داخل في

(١) السيرة الحلبية، ج٣ ص ٢٨١، وكذلك الطبقات، لابن سعد، ج١ ص٣٢١ . ٣٢٧ .

إطار عموم تبليغه ﷺ وظيفته التي أرسل من أجلها، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [1] .

وسائل هذا المضمون:

لقد احتوى هذا المضمون على ثلاثة وسائل دبلوماسية هي في غاية الأهمية:

الأولى: الكتب والرسائل والسفراء .

الثانية: استقباله ﷺ للوفود والبعوث .

الثالثة: الصلح والأمان لأهل الذمة وغيرهم .

وهذا: ما سيفيض به البحث إن شاء الله تعالى، وذلك لأن الغاية من الدبلوماسية الإسلامية، هي تبليغ الدعوة والإقرار بسيادة الدولة الإسلامية، فمن دخل الإسلام فهو واحد من الرعية، ومن أبى وبقي على دينه فعليه أن يعلن ولاءه لسيادة الدولة الإسلامية، لأنها الدولة المؤمنة بالله تعالى، وهي التي بحكم إيمانها تحافظ على كرامة الإنسان، وعرضه وماله، وتقيم له العدل والإحسان، وتضمن له الأمن والأمان وترعاه في جميع شئون حياته .

وتلك طبيعة الدولة الإسلامية، فهي قائمة على العدل والإحسان والمساواة بين الناس، وكذلك طبيعة المجتمع الإسلامي، فهو مجتمع تنتشر فيه المحبة والإخاء والتراحم، وأفراده يد واحدة على من سواهم يشد بعضهم بعضًا .

وبالإضافة إلى إعلان غير المسلمين الولاء للدولة الإسلامية فإن عليهم أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون، مادامت هذه العناية والحماية متوفرة لهم .

٢ ـ الوفاء بالعهود والمواثيق:

(١) سورة الأنعام، الآية (٩٢) .

للوفاء بالعهود قيمة إنسانية وأخلاقية نادرة، لأنه يرسى دعائم الثقة بين الأفراد، ويؤكد أواصر الأخوة والتعاون بين المجتمع .

والوفاء بالعهد يختص بالإنسان اللبيب فمن فقد منه الوفاء فقد انسَلخ من الإنسانية، وقد جعل الله تبارك وتعالى الوفاء بالعهد من شيم أصحاب العقول، وعظمه وعظم القائمين به ومدحهم، فقال تعالى: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [1] .

ولقد حقر القرآن من شأن ناقضي العهد، ولعنهم وتوعدهم وجردهم من إنسانيتهم، فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾[2].

وقد بلغ الالتزام بالعهد والميثاق عند المسلمين وخاصة في الدولة الإسلامية درجة عالية لم نجد مثيله عند أمة من الأمم السابقة، ويؤيد ذلك ما روي عن عمرو بن الحَمِقْ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ أيما رجل أمَّن رجلاً على دمه، ثم قتله فأنا من القاتل برئ وإن كان المقتول كافرًا ﴾ [3] .

وهذا البيان الحاسم يكشف لنا عن روح الإسلام وسماحته في معاملة من لا يدينون بالإسلام، بينما نرى اليهود ينكرون دائمًا الوفاء بالعهود والمواثيق، وقد تأصل ذلك فيهم حتى أصبحت سمتهم لا يعرفون

(١) سورة الرعد، الآيتان (١٩، ٢٠) .

(٢) سورة الرعد، الآية (٢٥) .

(٣) نضرة النعيم، ج٨ ص٣٦٣٩، والحديث رواه المنذري في الترغيب والترهيب، كتاب: الأدب، باب: الترغيب في الحب في الله، ص ٥٢٠، رقم (٤٤٢٧)، وكذلك رواه ابن ماجة في السنن، كتاب: الديات، برقم (٢٦٨٨) .

إلا بها، كما قال ربنا سبحانه: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾ [1].

في حين نرى الإسلام يدفع بحمية بالغة عمن منحهم ذمته، وأدخلهم في عقده، فالإسلام لم يجز مناصرة فئة مظلومة من المسلمين على فئة معاهدة للدولة الإسلامية جاعلاً حرمة العهد والميثاق فوق حرمة الأخوة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾ [2].

فللمعاهدات حرمة في الإسلام، والالتزام بها شرع إلهي عادل، لا يجوز نقضه، مادام قائمًا، ولا يجوز الإخلال بشرط من شروطه أو بنوده، وتلك وصية الرسول ﷺ للمسلمين باحترام والتزام تلك العقود والمواثيق، ولذلك جاء في الحديث: ﴿ المسلمون عند شروطهم ﴾ [3].

ولقد عد خُلْفَ الوعد من النفاق، فقال ﷺ: ﴿ آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف ﴾ [4].

ولقد بايع رسول الله ﷺ الأنصار على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، فبايعوه على ذلك، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه فقدموا أنفسهم سهلة رخيصة في غزوة بدر وما تلاها من غزوات، حتى في غزوة حنين حينما أدبر المسلمون وانكشفوا في أول الأمر فكانوا هم أول الملبيين

(١) سورة البقرة، الآية (١٠٠) .

(٢) سورة الأنفال، الآية (٧٢) .

(٣) رواه البخاري، كتاب: الإجازة، باب: أجر السمسرة، برقم (٦٦٥)، وقال الدكتور/ مصطفى البغا معلقًا: (يوفي بعضهم بعضًا ما أتفق عليه من الشروط خاصة وأن بعض الروايات زادت في الحديث شرطًا هو: "إلا شرطا أحلَّ حرامًا أو حرَّن حلالاً") .

(٤) البخاري، كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق، ص ٣٠، رقم (٣٣)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق، ص ٥٦، رقم (٥٩)، ط. بيت الأفكار .

لنداء رسول الله ﷺ حينما ناداهم وفاءًا بعهدهم معه في بيعة العقبة، فقد جاء في السيرة الحلبية: ﴿ أن الصحابة لما أدبروا عن رسول الله ﷺ في غزوة حنين أقبلت هوازن وغطفان بذراريهم ونَقِمهم، ومع رسول الله ﷺ يومئذ عشرة آلاف مقاتل ومعهم الطلقاء، فأدبروا عنه حتى بقي وحده .

فنادى يومئذ نداءين، التفت عن يمينه فقال: يا معشر الأنصار، قالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك، ثم التفت عن يساره فقال: يا معشر الأنصار، قالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك، وهو على بغلة بيضاء، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بزمامها، فقال ﷺ: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، فانهزم المشركون، وأصاب المسلمون غنائم كثيرة فقسمها بين المهاجرين والطلقاء، لوم يعط الأنصار منها شيئًا .

فقالوا: إذا كانت الشدة فنحن ندعي، ويُعطي الغنائم غيرنا! فبلغه ذلك فجمعهم، ثم قال: يا معشر الأنصار مقالةٌ بلغتني عنكم وجدةٌ وجدتموها في أنفسكم ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله؟ وعالةً فأغناكم الله؟ وأعداءً فألَّفَ الله بين قلوبكم؟ قالوا: بل الله ورسوله أمَنُّ وأفضل، قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار، قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المن والفضل؟ .

قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقْتم وصُدِّقتم، أتيتنا مُكَذَّبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قومًا ليُسْلِمُوا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله في رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمرَاً من الأنصار، ولو سلكت الناس شِعبًا، وسَلَكتِ الأنصارُ شِعْبًا لسَلِكْتُ شِعْبَ الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناءَ

الأنصار وأبناءَ أبناءِ الأنصار، قال: فبكي القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قِسْمًا وحظًا، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا ﴾ [1] .

وهكذا نجد الإسلام دائمًا يحرص على الالتزام بالعقود والعهود والمواثيق، فإذا وثق إنسان عهدًا بمعروف فليصرف همته في إمضائه، مادامت فيه عين تطرف، وليعلم أن منطق الرجولة وهدي اليقين لا يتركان له مجالاً للتردد والانثناء [2] .

وهذا: حال المؤمن دائمًا (الوفاء بالعهد) ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [3] .

وقوله سبحانه: ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [4] .

٣ ـ احترام الكرامة الإنسانية:

ويراد بها: احترام الإنسان لذاته، دون النظر إلى لونه أو جنسه، وتتجلى هذه الكرامة في الإسلام بأمرين هما:

أ . إعلان المساواة: وترتكز المساواة في الإسلام على وحده الإنسانية من حيث مصدرها ومصيرها، وهي تعني: احترام آدمية الإنسان لذاته، وحفظ كرامته .

ب . تحقيق العدالة: فالعدالة ثمرة طبيعية للمساواة، فلا معنى للمساواة دون عدالة، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري، برقم (١١٧٣٠)، طبعة مؤسسة الرسالة، ج١٨ ص٢٥٥، وأخرجه ابن أبي شيبة، ١٥٦/ ١٢ . ١٥٧، ٥٢٨/ ١٤ . ٥٢٩، وأبو يعلى (١٠٩٢)، والبيهقي في الدلائل، ١٧٦/ ٥ . ١٧٧، من طريقين عن محمد بن إسحاق، به وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد، ٢٩/ ١٠ . ٣٠، وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق .

(٢) خلق المسلم، الشيخ/ محمد الغزالي، ص ٦٤ .

(٣) سورة النحل، الآية (٩١) . (٣) سورة الإسراء، الآية (٣٤) .

﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [١] أي لا يحملنكم بغضكم لقوم على ترك العهد فيهم، بل استعملوا العدل مع كل أحد، صديقًا كان أو عدوًا .

والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠ ﴾ [٢] .

وفي ذلك يشير المولى تبارك وتعالى إلى تشريف بني آدم وتكريمه إياهم في خلقه على أحسن الهيئات وأكملها، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ﴾ [٣] .

أي يمشي قائمًا منتصبًا على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربعة، ويأكل بفمه، وجعل للإنسان سمعًا وبصرًا وفؤادًا يفقه بذلك كله، وينتفع به ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية، ولقد استدل بهذه الآية على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة [٤] ... ومن علامات التكريم كذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [٥] .

وقوله ﷺ: ﴿ يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى أبلغت قالوا: بلغ رسول الله ... ﴾ [٦] .

---

(١) سورة المائدة، الآية (٨) .

(٢) سورة الإسراء، الآية (٧٠) .

(٣) سورة التين، الآية (٤) .

(٤) تفسير ابن كثير، ج٣ ص ٥١ .

(٥) سورة الحجرات، الآية (١٣) .

(٦) أخرجه الإمام/ أحمد عن أبي نَضْرة (المنذر بن مالك بن قطعة العبدي) من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، برقم (٢٣٤٨٩)، وأخرجه أبو نعيم في الحلية، ١٠٠/ ٣، من طريق أبي قلابة القبيسي عن الجريري عن أبي نصرة .

ومن أهم العناصر التي تمثلها الكرامة الإنسانية ... العدالة الاجتماعية، والتي هي من أهم المبادئ الدينية، التي جعلها الله تبارك وتعالى مسئولية المجتمع الإسلامي نحو أفراده وبني جنسه .

وبين أن العدالة الاجتماعية تقوم أول ما تقوم على الإخاء والمحبة والرحمة، وليس الإخاء لفظًا مجردًا بقدر ما هو حقيقة تاريخية في التطبيق لكل النظم الإسلامية وخاصة النظم الاقتصادية والأخلاقية .

وعلى ذلك: فليس الإخاء واقفًا عند حدود الكلام فقط، بل إنه يتعدى ذلك إلى حدود الفعل والتطبيق، فعندما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) .

وعندما يقول ﷺ: ﴿ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ﴾ (٢) ... وقوله ﷺ: ﴿ ... المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ... بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ﴾ (٣) .

لا يعني ذلك أن تكون الأخوة كما يعبر عنها باللسان فقط بل إنها تكون ترجمة واقعية في شتى نواحي الحياة، يبذل فيها كل مسلم قدر طاقته واستطاعته في سبيل تحقيقها بالأعمال وليست بالأقوال، فهي إذًا حركة كاملة لجمع نظم الإسلام، حققها الرسول الكريم ﷺ في الواقع العملي بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار ليصنع منهم أمة واحدة، تلتزم بجميع

(١) سورة الحجرات، الآية (١٠) .

(٢) رواه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ص ٢٦، رقم (١٣)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، رقم (٧١) .

(٣) مقطع من حديث ﴿ لا تحاسدوا ﴾، رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والأدب، باب: تحريم ظلم المسلم، ص١٠٣٥، رقم (٢٥٦٤) .

التكاليف الشرعية التي تحقق مبدأ الكرامة الإنسانية، والعدالة الاجتماعية .

ولذلك كانت هذه المؤاخاة نوعًا من الإعجاز السياسي الذي اتبعه الرسول ﷺ في تأصيل المودة والمؤاخاة وتمكينهما في مشاعر المهاجرين والأنصار، الذين عملوا جميعًا على رعايتها، بل وكانوا يتسابقون في تنفيذ ما ألزموا به ولاسيما الأنصار الذين لا يجد الكتاب ولا الباحثون مهما تساموا إلى ذروة البيان خيرًا من حديث الله ﷻ عنهم في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (١).

ولقد زخرت كتب السيرة بالحديث عن هذه المؤاخاة، فمما روي في هذا الأصل: ﴿ أن رسول الله ﷺ آخى بين عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع، فقال سعد: يا عبد الرحمن ... إني من أكثر الأنصار مالاً، وأنا أقاسمك مالي، ولي امرأتان، فانظر أخيرهما لنفسك فأطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك أين سوقكم؟ ... ﴾ (٢) .

انظر كيف تحققت هذه المؤاخاة بين الصحابة الكرام . رضوان الله عليهم . في واقعهم العملي، وفي كل أوجه العلاقات القائمة بينهم على أكمل وجه .

إن تحقيق مبدأ العدالة بين الأفراد لا يتم إلا على أساس من التآخي

---

(١) سورة الحشر، الآية (٩) .

(٢) عيون الأثر، لابن سيد الناس، ج١ ص ٢٠٣، والسيرة النبوية في فتح الباري، لابن حجر، ج٢ ص٧٢، وهذا ما روي في كتب السيرة، وأما نص الحديث ففي البخاري، كتاب: البيوع، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾، ص٣٨٧، رقم (٢٠٤٨) .

والمحبة، لذلك: اتخذ رسول الله ﷺ من حقيقة التآخي الذي أقامه بين المهاجرين والأنصار أساسًا لمبادئ العدالة الاجتماعية التي قام على تطبيقها أعظم وأروع نظام اجتماعي في العالم، ولقد تدرجت مبادئ هذه العدالة فيما يعد بشكل أحكام وقوانين شرعية ملزمة، ولكنها كلها إنما تأسست وقامت على الإخوة الإسلامية، ولولا هذه الأخوة العظيمة، التي تأسست بدورها على حقيقة العقيدة الإسلامية، لما كان لتلك المبادئ أي أثر تطبيقي وإيجابي في شد أزر المجتمع الإسلامي ودعم كيانه .

وعلى ذلك: فإن مبدأ التآخي لم يكن مجرد شعار في كلمة، وإنما كانت حقيقة عملية تتصل بواقع الحياة، وبكل أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين حتى وصل إلى درجة التوازن فيما بنهم .

فالعدالة الاجتماعية في الإسلام ليس لها شبيه أو رديف في الأنظمة الأخرى، لأنها تنطلق في الإسلام من العقيدة والإيمان، وقائمة على ركيزة الإخاء والكرامة داخل المجتمع الإنساني، ولذلك ... فهي تحفظ على الإنسان مروءته، وكرامته وقيمته الإنسانية .

ومما يبرز العدالة الاجتماعية: الجانب الأخلاقي حيث أن قيمة الإنسان وكرامته متساوية بين سائر أبناء المجتمع الإسلامي مهما اختلفت أشكاله وألوانه ووظائفه، ويشهد لذلك: (ما رواه ابن كثير من أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، وهو أمير المؤمنين، ورئيس الدولة الإسلامية في إفريقيا وآسيا، كان يخطب الناس يومًا ويعظهم ألا يتغالوا في المهور، فقالت له امرأة: أيعطينا ربنا وتمنعنا أنت، فقد قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [1] .

(١) سورة النساء، الآية (٢٠) .

فقال سيدنا عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر ... وفي رواية: كل الناس أفقه من عمر)[١].

إن المحافظة على الكرامة الإنسانية أمر من الأمور التي لها حظ وافر في المبادئ الإسلامية، ولذلك فهو يوفرها بين أفراد مجتمعه عامة، بل وبين أفراد المجتمع والرؤساء، سواءً أكان هؤلاء الأفراد رجالاً أم نساء، ولا غضاضة في ذلك، فإن للمرأة الحق كما أن للرجل الحق تمامًا بتمام في الدولة الإسلامية لأنهم جميعًا يحملون مسئولية واحدة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأي كائن كان .

ولذلك ... فحينما عارضت امرأة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، وهو يتحدث عن تخفيض المهور لم يعنفها أحد ولم تخذل في أمر بل استجاب لها سيدنا عمر ﷺ وقال: (أصابت امرأة وأخطأ عمر) .

ولم يقتصر أمر المحافظة على الكرامة الإنسانية في الدولة الإسلامية على المسلمين فقط، بل تعدى الأمر حتى شمل المحافظة على كرامة غير المسلمين، بل وتساويها بكرامة رؤساء الدول .

ولعل أوضح مثال على ذلك حينما كانت هناك خصومة بين سيدنا علي ﷺ الذي كان في ذلك الوقت أميرًا للمؤمنين، وبين يهودي فقد سُوِّي بينهما ووقفا جنبًا إلى جنب أمام القاضي، ولم يُميَّز ﷺ عن اليهودي بشيء، ولما لم يكن مع سيدنا علي ﷺ (بيِّنَة) تثبت حقه رغم أنه صادق وصاحب حق، والقاضي يعلم ذلك، إلا أنه حكم للخصم اليهودي ضد سيدنا علي ﷺ لأنه يملك من الأدلة ما يثبت له الحق، فلم يضق صدر أمير المؤمنين بهذا الحكم لأنه كان يعلم أن القاضي ينفذ تعاليم الإسلام،

(١) تفسير ابن كثير، ج١ ص ٤٦٧ .

وأن الحاكم لا يعلو فوق الحق والقانون ولا فوق القضاء، مع أن القاضي يعلم علم اليقين أن عليًا صاحب الحق، ولكن صاحب الحق عجز عن إثبات ملكيته أمام خصمه اليهودي الذي استطاع ظلمًا وزورًا أن يقيم الدليل على ملكيته للشيء المتنازع عليه .

وأدرك اليهودي عظمة الإسلام، فردَّ لأمير المؤمنين حقَّه، وخرج من يهوديته، واعتنق الإسلام، وصار واحدًا من جماعة المسلمين .

ولعله . كذلك . من أوضح البراهين والأدلة على صدق الإسلام في تحقيق العدالة الاجتماعية، أن فزاريًا وطئ إزار جبلة بن الأيهم وكان ملكًا في ذاك الوقت وهو يطوف بالكعبة، فلطمه جبلة لطمة هشمت أنفه، فاشتكى الفزاري ذلك لعمر، فقال عمر ﷺ لجبلة: إما أن تدفع الدية، وإما أن تأذن له بلطمك لطمة مثلها، فقال جبلة متعجبًا: كيف ذلك؟ وأنا ملك هو سوقه؟ فقال عمر: لكن الإسلام قد سوى بينكما .

وتذهب العدالة الاجتماعية كمبدأ أساسي في المجتمع الإسلامي إلى أبعد من رعاية بني آدم، حيث تذهب إلى رعاية الحيوانات، فقد دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض [1] .

وهكذا تكون العدالة الاجتماعية في مراقبتها للتوازن بين أفراد المجتمع كبيرهم وصغيرهم رئيسهم ومرؤوسيهم غنيهم وفقيرهم، فهم كلهم أمام الله سواء، إخوة متحابون متعاونون على البر والتقوى، بعيدون عن

(١) والحديث مروي عن عبد الله بن عمر {، وأخرجه الشيخان، قال ﷺ: ﴿ دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض ﴾، وروي عن أبي هريرة مثله، واللفظ هنا للبخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، برقم (٣٣١٨)، ومسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم تعذيب الهرة ونحوها من الحيوان الذي لا يؤذي، برقم (١٣٣) .

الإثم والعدوان، وهم وحدة على من سواهم لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وهذا ما يوضح لنا جانبًا من العلاقات الدولية في سيرة المصطفى ﷺ، وفيما يلي بيان آخر لأهمية هذه العلاقة في ظل التسامح الإسلامي مع غير المسلمين .

المطلب الثاني
التسامح والبر مع غير المسلمين

التسامح سمة من سمات الإسلام، ومبدأ من مبادئه الأساسية، لذلك فقد تمسك به الرسول ﷺ مع غير المسلمين، فقد كان متسامحًا لأقصى درجة التسامح، وذلك التزامًا لأوامر الله ﷻ له في ذلك، وسار على نهجه المسلمون من بعده اقتداء به ﷺ .

والأمثلة على ذلك كثيرة، فإذا ما تصفحنا كتابًا من كتب التاريخ الإسلامي وغيرها لوجدنا الكثير والكثير من الأخبار الصادقة التي تدل دلالة واضحة على شيوع مبدأ التسامح في الدولة الإسلامية، سواء أكان في حياة الرسول ﷺ أم في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم إلى يومنا هذا، حتى تحاكى بهذا المبدأ الإسلامي القاصي والداني، وأقرَّ به حتى أعداء الإسلام، وكان لهذا المبدأ الأثر الكبير في التأثير على غير المسلمين وتحويلهم من أفراد معادين للإسلام إلى أفراد معتنقي هذا الدين الحنيف .

ومن أمثلة التسامح في الإسلام ... أن هذا الدين الحنيف دعا أتباعه إلى السماحة والمحبة والتعاطف والسلام مع الآخرين من غير المسلمين، ونهي عن التعصب والحقد والبغضاء على اليهود والنصارى وغيرهم ما داموا مسالمين .

كما أمر الإسلام أتباعه بالإيمان بكل الرسل والأنبياء السابقين، ونهاهم عن إتهام أي نبي أو التهجم على أي رسول .

وقد التزم المسلمون بذلك على مر العصور والأزمان، ورغم ذلك، ورغم المعاملة الحسنة التي عامل المسلمون بها غيرهم، إلا أننا نرى الكثير من أتباع الرسالات الأخرى، قد ملئت قلوبهم حقدًا وحسدًا وعداوة تجاه المسلمين .

وذلك لأن اليهود كانوا يطمعون في أن يكون رسول آخر الزمان من بني إسرائيل، فلذلك حقدوا على العرب، وعلى المسلمين لما جاء الرسول ﷺ من العرب، وكما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وشعب الله المختار، وأن عيسى ومحمدًا كاذبان، وأتباعهما ضالون مضلون، فلا يقيمون للمسيحية وزنًا ولا للإسلام قيمة .

والمسيحيون يؤمنون بنبوة موسى وألوهية عيسى، ولا يقرون بنبوة محمد ﷺ، وينقمون على اليهود كما ينقمون على المسلمين، لأن الإسلام في زعمهم محض افتراء، افتراه رجل من العرب وادعى النبوة كما ادعى أن رسالته ناسخة لما قبلها من رسالات.

ومن هنا: امتلأت قلوبهم وأفئدتهم بالحقد، والتعصب الذميم، وامتزجت هجماتهم بكراهية وبغضاء على النبي ﷺ وعلى الإسلام والمسلمين إلى يومنا هذا .

الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة:

في مقابل ذلك: أمر الله تعالى المسلمين بالدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، حتى لا يعقب ذلك فُرقة ولا خصومة ولا كراهية، ولا إكراه في الدين، وجاءت الآيات موصية بذلك، موضحة هذا الأساس، من ذلك قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد

تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [١] .

وقوله سبحانه: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ [٢].

وقوله ﷻ: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[٣].

وهذا من أهم المبادئ والأسس التي قام عليها التسامح الإسلامي المتمثلة في شخص رسول الله ﷺ، وخلفائه من بعده، ويأخذ هذا المبدأ نوعين من التسامح، الأول: تسامح في القول، الثاني: تسامح في الفعل، وفيما يلي بيان لذلك:

النوع الأول: التسامح القولي:

ويتمثل ذلك في القرآن الكريم والسنة الشريفة، وبيان ذلك فيما يلي:

أولاً: القرآن الكريم:

حفل القرن الكريم بكثير من الآيات التي تدعو المسلمين إلى التسامح مع غيرهم، سواءً أكان عن طريق البر إليهم، أم المجادلة بالحسنى، أم دعوتهم بالمعروف، أم الوفاء بالعهد، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ ﴾ [٤] .

وقوله سبحانه: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥٦) .

(٢) سورة الكهف، الآية (٢٩) .

(٣)سورة العنكبوت، الآية (٤٦) .

(٤) سورة الممتحنة، الآية (٨) .

(٥)سورة العنكبوت، الآية (٤٦) .

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [1] .

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [2] .

وقوله: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾[3].

وقوله: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾[4].

وقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾[5].

فهذه طائفة من الآيات تبين وتوضح مدى التسامح الذي تحلى به الدين الإسلامي وتمسك به المسلمون .

ثانيًا: السنة النبوية:

ولا تقل السنة في هذا المبدأ عن تعاليم القرآن الكريم فهي زاخرة بأقوال رسول الله ﷺ في ذلك، من ذلك قوله ﷺ: ﴿ ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة ﴾ [6] .

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٦٤) .

(٢) سورة التوبة، الآية (٦) .

(٣)سورة الإسراء، الآية (٣٤) .

(٤)سورة النحل، الآية (٩١) .

(٥)سورة التوبة، الآية (٤) .

(٦) رواه أبو داود في سننه، كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، برقم (٢٠٥٢)، عن عدة من أبناء الصحابة يبلغون حد التواتر، وقال الألباني: الحديث صحيح، وأخرجه البيهقي .

وقال ﷺ: ﴿ من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وإن ريحها لتوجد من سبعين عامًا ﴾ (١) .

والأحاديث في ذلك كثيرة تؤيد مبدأ التسامح القولي .

النوع الثاني: التسامح الفعلي:

وقد ظهر هذا النوع في كثير من المعاهدات والمصالحات التي أجراها رسول الله ﷺ، وهذا ما سنوضحه فيما يلي تحت عنوان: إبرام العصود والمصالحات (٢) .

المطلب الثالث
إبرام العقود والمصالحات مع غير المسلمين

إن من شأن المنتصر أن يستبد برأيه ويتسلط في حكمه، فيملي شروطه على حسب هواه بدافع من الغيظ والانتقام، والغرور، والعزة بالإثم، وتلك حالة المنتقمين دائمًا .

ولكن يتغير الحال شكلاً وموضوعًا مع المسلمين وقائدهم ﷺ، فهم في عهودهم مع المنهزمين كرماء، ومع المغلوبين رحماء، لا يدفعهم انتقام، ولا يغترون بانتصار، ودليل ذلك ما يلي:

أولاً: صلح الحديبية:

ولسنا بصدد الحديث عن هذا الصلح مفصلاً، وإنما الهدف من وراء ذلك بيان ما كان عليه ﷺ من سماحة الطبع ولين في المعاملة، مع قدرته عليهم، وتمكنه فيهم، وما نذكره الآن لهو أكبر دليل على ذلك .

خرج رسول الله ﷺ ومعه كثير من المعتمرين، حتى إذا كانوا بثنية المرار، بركت القصواء، فنهرها الصحابة فلم تستجب، فقالوا خلأت،

---

(١) رواه أحمد من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، ج٢٩ ص٦١٤، والحديث صحيح، ويشهد له حديث عبد الله بن عمرو الصحيح الذي أخرجه أحمد أيضاً، برقم (٦٧٤٥) .

(٢) راجع في ذلك: التعصب والتسامح بين المسيحة والإسلام، الشيخ/ محمد الغزالي، ص ٧٠، وكذلك: سماحة الإسلام، د/ أحمد الحوفي، ص ٤٨ .

فقال ﷺ: ﴿ ما خلأت، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ﴾ ... ثم زجرها فوثبت، حتى نزلوا على بئر قليل ماؤه، فأخذوا منه حتى نزحوه، فاشتد بهم العطش، فأخذ ﷺ سهمًا من كنانته فجعله فيها فجاش بالماء حتى صدروا .

فلما علمت قريش بمقدم رسول الله ﷺ، أوفدت إليه رسلها واحدًا بعد الآخر (بديل بن ورقاء، مكرز بن حفص، الحليس بن علقمة، وآخرهم سهيل بن عمرو) .

وأراد شباب قريش الطامحين للحرب أن يحبطوا رَغبة زعمائهم في الصلح، فخرجوا ليلاً متسللين ليحدثوا نار الحرب في معسكر المسلمين، فتصدى لهم قائد حرس المسلمين محمد بن مسلمة، فاعتقلهم عن آخرهم، وكانوا ثمانين، وما كان من سماحة رسول الله ﷺ إلا أن أطلق سراحهم ... وذلك رغبة في الصلح .

فأرسل رسول الله ﷺ عثمان بن عفان ليخبر أهل مكة بمراد رسول الله ﷺ ... فدخل عثمان في جوار أبان بن سعيد بن العاص، فبلَّغ رسالة رسول الله إلى زعماء قريش، فعرضوا عليه أن يطوف بالبيت، فرفض قبل أن يطوف رسول الله ﷺ .

فتفاوض رجال قريش ليردوه بجواب فطال انتظاره فشاع بين المسلمين أنه قتل، فقال ﷺ: (لا نبرح حتى نناجز القوم، فبايعه الصحابة على ذلك، وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [1] .

(١) سورة الفتح، الآية (١٨) .

علمت قريش بخطورة الموقف وتأزمه، فأرسلت سهيل بن عمرو، لعقد صلح بينهم وبين رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ، قال: (لقد سهل الله لكم أمركم، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل) فتكلم سهيل مع رسول الله ﷺ، ثم اتفقا على مصالحة ووضعوا لها شروطًا بيانها كالتالي:

١ . أن يرجع الرسول ﷺ ومن معه ولا يدخلوا مكة، على أن يكون العام القابل، فيدخلون مكة ويمكثون بها ثلاثة أيام، مجردين من السلاح إلا السيوف في القرب، عندئذ لا تتعرض لهم قريش .

٢ . وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض .

٣ . من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وعلى ذلك: فأي قبيلة دخلت مع حليفها فلا عدوان عليها، وإلا يعتبر ذلك خرقًا للعهد .

٤ . من أتى محمدًا من قريش من غير إذن وليه . أي هاربًا منهم . رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد . أي هاربًا منه . لم يرد عليه .

وهذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ مبعوث قريش، نرى من خلال هذه البنود، مدى الإجحاف في ذلك، ومع هذا قبلها رسول الله ﷺ، وأكثر من هذا نرى على الجانب الآخر مدى سماحة رسول الله ﷺ ولين جانبه، حتى عند تدوين هذه البنود .

فلقد دعا رسول الله ﷺ عليًا ليكتب، فقال ﷺ: اكتب "بسم الله الرحمن الرحيم" فقال سهيل: أما الرحمن فو الله لا ندري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهم، فأمر النبي ﷺ عليًا بذلك، ثم أملى رسول الله ﷺ على عليٍّ "هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك

عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال: إني رسول الله وإن كذبتموني، وأمر عليًا أن يكتب محمد بن عبد الله، ويمحو لفظ رسول الله، فأبى عليًا أن يمحو هذا اللفظ، فمحاه ﷺ بيده، ثم تمت كتابة البنود.

وعندئذ دخلت خزاعة في حلف رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في حلف قريش وعهدهم ... ووفاء من رسول الله ﷺ بهذا العقد والصلح، وبناءً على هذه البنود، ردَّ رسول الله ﷺ أبا جندل وقد جاء مسلمًا: وهو ابن سهيل بن عمرو .

وجعل أبو جندل يصرخ، يا معشر المسلمين أأردُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال ﷺ: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم) [1] .

هذا هو الأصل الذي بنى عليه رسول الله ﷺ مجتمع أصحابه رضوان الله عليه بناه على مبدأ التسامح، ولين الجانب . فلقد عرفنا مدى تنازله في عقد الصلح وكتابة البنود على رأي مفاوضه . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى حلمه وكريم صنعه ﷺ .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من وفائه ﷺ في كتابة العهود والمواثيق، بل تعدى الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك .

فهذا سهيل بن عمرو نفسه كبير مفاوضي مكة في هذا الصلح، كان فظًا غليظ القلب على الإسلام والمسلمين، وكثيرًا ما كان يهجو رسول الله ﷺ، وعلمنا موقفه من ابنه عند كتابة العقد مع رسول الله ﷺ، فلقد جاء مسلمًا فلطمه وضربه ضربًا شديدًا، وأصفده بالأغلال وسحبه إلى مكة .

(١) راجع في ذلك: الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج١ ص ٤١٢، وسيرة ابن هشام، ج٣ ص ٣٦٧، وعيون الأثر، لابن سيد الناس، ج٢ ص ١١٣، والرحيق المختوم، المباركفوري، ص ٣٣٧ .

وقع هذا الهجَّاء الفظ غليظ القلب أسيرًا يوم بدر، فأشار عمر بن الخطاب ﷺ على رسول الله ﷺ أن ينزع ثنيته حتى يندلع لسانه فلا يقدر على الكلام والهجاء ... فلم يرض رسول الله بذلك، وقال: (لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبيًا، ولعله يقوم مقامًا لا تكرهه) .

فكان: كما قال ﷺ، فلما توفى صلوات الله عليه وسلامه، قام خطيبًا في الناس وذكرهم أن العبادة لا تكون إلا لله ثم تلا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [١] .

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [٢] .

ثم قال والله إني لأعلم أن هذا الأمر . أمر الدعوة والرسالة . سيمتد امداد الشمس في طلوعها وغروبها ... وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم وكلمته تامة، وإن الله ناصر من نصره، ومقو دينه، وقد جمعكم الله على خيركم . يعني أبا بكر الصديق ﷺ . وذلك لم يزد الإسلام إلا قوة وصلابة، فمن رأيناه ارتد ضربنا عنقه) [٣] .

فهذا هو سهيل بن عمرو، وتلك هي رأفة رسول الله ﷺ، ورحمته ولين جانبه، فلو كان ﷺ استمع لقول عمر ﷺ، أكان لسهيل مثل هذا الموقف الذي جمع فيه الصحابة ليعظهم بعد وفاة رسول الله ﷺ، ويجمعهم على كلمة واحدة ورجل واحد .

إنها الرأفة والرفق، والسماحة والعفو، والرحمة والعطاء ولين الجانب، واحترام مقادير الناس، وتكريم فضائل أخلاقهم، ولقد استخدم ﷺ ذلك

(١) سورة الزمر، الآية (٣٠) .

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٤٤) .

(٣) السيرة الحلبية، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، علي بن إبراهيم بن أحمد الجلي، المتوفى ١٠٤٤هـ، ج٢ ص٢٦٨، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ .

المنهج لتبليغ الدعوة وتربية أصحابه من بعده ليسلكوا نفس المنهج والتاريخ خير شاهد على ذلك وطويل .

ولم يقف الأمر من هذا المنهج عند المشركين من قريش أو حتى عند فرد منهم، بل يتعدى هذا الأمر إلى غيرهم من أهل كتاب، فقد شملهم رسول الله ﷺ بوده وحباهم بعطفه، فصالحهم وكتب معهم عهودًا ومواثيق، وما أرغمهم على ما يكرهون، سواءً أكانوا يهودًا أم نصارى، ومما يدل على ذلك ما نراه في .

ثانيًا: كتابة العهود والمواثيق مع اليهـــود:

عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، كان بها أربع قبائل من اليهود، قبيله خيبر وكانت في شمال المدينة، وثلاث قبائل في وسط المدينة وهي بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وهؤلاء الثلاثة هم الذين كانوا يجاورون المسلمين في المدينة، ومع أنهم كانوا يبطنون العداوة والبغضاء، إلا أنهم ما أظهروا ذلك، ولا أفصحوا به أول أمرهم، لذلك سلك رسول الله ﷺ معهم مسلكًا طيبًا، أعرب فيه عن مدى سماحة الإسلام، ولين جانب المسلمين، فكتب لهم كتابًا عاهدهم فيه على ترك حريتهم الدينية، وعدم إبعادهم عن الأرض، أو مصادرة أموالهم، وعدم التعرض لأي شيء يكرهونه، والوثيقة طويلة ولها بنود كثيرة نستخلص منها ما يلي:

١ . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .

٢ . أن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .

٣ . أن يكون بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

٤ . أن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٥ . إن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث يخاف فساده فإن مرده إلى الله ورسوله .

وبلزوم هذه المعاهدة، صارت المدينة وضواحيها دولة متحدة، عاصمتها المدينة، وحاكمها هو نبي الرحمة ورسول السلام، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين، وبذلك أصحبت المدينة عاصمة حقيقية للإسلام) [١] .

وظل العمل ساريًا بهذه الوثيقة، والمسلمون متمسكون بمبادئهم الخلاقة الكريمة لا ينقضون عهدًا ولا ذمة، حتى جاء اليهود ونقضوها كلها، كما هو حالهم وتلك وصمة عارهم، كما قال فيهم ربنا سبحانه: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾ [٢] .

فكان جزاؤهم أن طردوا من المدينة كلها شر طرده، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، وقد بقى من هذه القبائل اليهودية في المدينة قبيلة خيبر، وكانت أشدهم عندًا وبغضًا وحقدًا، ومع ذلك صالحهم رسول الله ﷺ وتركهم على دينهم وأمر أن لا يتعرض لهم أحد من المسلمين بسوء .

عن العرباض بن سارية ﷺ قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ قلعة خيبر، ومعه من معه من المسلمين، وكان صاحب خيبر رجلاً ماردًا متكبرًا، فأقبل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد! لكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثُمرنا وتضربوا نساءنا؟

فغضب رسول الله ﷺ لما حدث، فقال يا ابن عوف: اركب فرسك، ثم نادى، إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن، وأن اجتمعوا للصلاة، فاجتمعوا، فصلى بهم، ثم قال: (أيحسب أحدكم متكأ على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئًا إلا ما في القرآن ... ألا وإني والله لقد وعظت وأمرت

(١) انظر: سيرة ابن هشام، ج١ ص ٥٠٣، ٥٠٤، والرحيق المختوم، ص ١٧٤ .
(٢) سورة البقرة، الآية (١٠٠) .

ونهيت عن أشياء، إنها لمثل القرآن أو أكثر، وإن الله لم يُحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم، إذا أعطوا الذي عليهم) [1] ... وبعد، فهذا قليل من كثير وغيض من فيض ... لنرى بعد ذلك:

ثالثًا: وفود النصارى وغيرهم على رسول الله ﷺ:

إن الحديث عن النصارى لم يطل بمثل ما طال على اليهود، وذلك لأن أكثر النصارى كانوا يأتون ليعلنوا إسلامهم، والقليل منهم كان يأتي ليصالح رسول الله ﷺ، ويقره الرسول على دينه، وربما يصالح فلا يمر عليهم وقت إلا وقد جاءوا مرة أخرى ليعلنوا إسلامهم، لما يجدوه من سماحة المسلمين وودهم ولين جانبهم .

فلما قوى الإسلام ودانت به العرب أقبلت الوفود على رسول الله ﷺ معلنة إسلامها ... ومن هذه الوفود:

١ . وفد تغلب: قدم على رسول الله ﷺ ستة عشر رجلاً عليهم صليب من ذهب، فنزلوا دار رملة بنت الحارث، فأسلم منهم من أسلم، وصالح الباقي منهم رسول الله ﷺ، على أن يقرهم على دينهم، وعلى أن يصبغوا أولادهم في النصرانية، فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك، وأعطى المسلمين منهم جوائز، وفي خلافة عمر ﷺ كان يضاعف لهم الصدقة) [2] .

٢ . وفد نجران: قدم على رسول الله ﷺ أربعة عشر رجلاً من أشرافهم كلهم نصارى، فعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام فأبوا، وكثر الكلام والحجاج بينهم، فتلا الرسول عليهم القرآن، وقال لهم: (إن أنكرتم ما

(١) فتوح البلدان، للبلاذري، ص ٤٥، وكذلك: التعصب والتسامح، للغزالي، ص ٥٢ .
(٢) الطبقات الكبرى، ج١ ص ٢٤١ .

أقول لكم فهلم أباهلكم) فرضوا بذلك وانصرفوا .

فأتى منهم جماعة وقالوا لا نباهلك، واحكم علينا بما أحببت نعطيك ونصالحك، فصالحهم، وكان لهم جوار الله وذمة رسول الله ﷺ على أنفسهم وملتهم، وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم (جمع بيعة)، وأشهد على ذلك شهودًا، ثم رجعوا إلى بلادهم، ولم يلبث بعضًا منهم أن رجع وأعلن إسلامه ... وهذا ما كان من ناحية اليهود والنصارى .

ثالثًا: المجوس:

أما المجوس فكانوا في أنحاء شبه الجزيرة العربية، منهم مجوس هجر وعمان، والبحرين، وهؤلاء جميعاً صالحهم رسول الله ﷺ، على البقاء على دينهم ودفع الجزية .

ولقد سلك الصحابة من بعده ﷺ هذا المسلك، فاقتدوا به في رحمته ورأفته وابتعوه في سماحة ولين جانبه .

فقد أوصى سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ أسامة بن زيد حينما وجهه إلى الشام بالوفاء لمن يعاهدهم، وبالرحمة في الحرب، وبالمحافظة على أموال الناس، وبترك الرهبان أحرارًا في أديرتهم وصوامعهم، وقال له: (لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بعيرًا إلا للأكل، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له) [(١)] .

وفي خلافته ﷺ عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة، على أن لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة، ولا قصرًا يتحصنون فيه، وعلى ألا يمنعوا من ضرب نواقيسهم، أو إخراج الصلبان في يوم عيدهم، على أن لا يعينوا كافرًا على مسلم، ولا يتجسسوا للكفار على المسلمين، ونص في المعاهدة على أن

(١) التعصب والتسامح بين الإسلام والمسيحية، الشيخ/ محمد الغزالي، ص ٥٤، وكذلك: سماحة الإسلام، د/ أحمد الحوفي، ص ٥٢ .

الجزية يعفى منها الشيخ الكبير الذي عجز عن العمل، أو أصابته آفة، أو كان غنيًا فافتقر، وليس ذلك فحسب، بل يُعَال هو وأولاده من بيت مال المسلمين ما أقام بدار الإسلام .

وأما في خلافة سيدنا عمر ﷺ، فكان مع شدته على المسلمين، كان رحيمًا على أهل الكتاب، فقد أعطى أهل إيلياء أمانًا على أنفسهم وأموالهم، وكنائسهم وصلبانهم، وأنهم لا يضطهدون بسبب نصرانيتهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله، حتى يبلغوا أمانهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية .

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسيروا بأنفسهم وأموالهم إلى الروم ويخلوا بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم) [1] وهذا باب طويل وسماحة المسلمين فيه أطول، لنرى مبدأ آخر من سماحة الإسلام .

(١) فتوح البلدان، للبلاذري، ص ٤٥، وكذلك: التاريخ الكبير، للإمام/ الطبري، ج٤ ص ١٥٩، وسماحة الإسلام، د/ أحمد الحوفي، ص ٥٤ وما بعدها، والتعصب والتسامح، الغزالي، ص ٤٤ .

المطلب الرابع
دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام عن طريق الكتب والرسائل

وهذا المبدأ الذي اتخذه رسول الله ﷺ لهو أعظم المبادئ التي تنظم العلاقات بين الدول، وهو ما يجرى على الساحة الدولية الآن بين الملوك والرؤساء العرب وغير العرب ... وتبادل الكتب بين الملوك والأمراء الذي اتخذه رسول الله ﷺ له دلالتان على جانب كبير من الأهمية .

الدلالة الأولى: عموم رسالته ﷺ، وهذا الأمر لا يحتاج إلى تفصيل أو مزيد بيان فيه بعد قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (١) .

وقوله سبحانه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (٢) .

وقوله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٣) .

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾(٤).

فهذه طائفة من الآيات تدل على عموم رسالته ﷺ، وإذا قلنا أن هذا الأمر لا يحتاج إلى تفصيل فهذا يدل على مطلق الإيمان .

الدلالة الثانية: وضع أسس العلاقات الدولية، وهذه العلاقة لا تقتصر على الدول المجاورة، بل تشمل أيضًا الدول البعيدة، وهذا هو المنهج الذي وضع أساسه رسول الله ﷺ، واتخذه وسيلة للاتصال والربط بين الدول القريبة والبعيدة عنه .

وبدأ هذه العلاقة تأخذ طابعها الرسمي مع رسول الله ﷺ بعد صلح

(١) سورة الأعراف، الآية (١٥٨) .
(٢) سورة الأنعام، الآية (٩٢) .
(٣) سورة الأنبياء، الآية (١٠٧) .
(٤) سورة سبأ، الآية (٢٨) .

الحديبية، حيث أنه ﷺ أخذ يتخير رسله، ويرسل كل رسول بلسان من سيرسل إليه . كما أشرنا سابقًا . وهذا في طبيعة أمره إنما يؤدي إلى إنجاح هذه المهمة وتلك العلاقة، ومما يزيد الأمر نجاحً وتوكيدًا، اتخاذ رسول الله ﷺ خاتمًا من فضة يختم به كتابه قبل توجيهه إلى الملك أو الأمير، وذلك لشدة الحرص والاعتناء بهذه العلاقة .

يقول ابن سعد: (كتب رسول الله ﷺ إلى قيصر، أو إلى الروم، ولم يختمه، فقيل له: إن كتابك لا يقرأ إلا أن يكون مختومًا، فاتخذ ﷺ خاتمًا من فضة، ونقش عليه، محمد رسول الله ﷺ، ونقش: محمد رسول الله ﷺ، قال: فكأني أنظر إلى بياضه في يد رسول الله ﷺ) [1] .

وسواء أكانت الكتب أ الرسائل موجهة إلى البعيد أو القريب، فإن أسلوبها لم يتغير ومنهج الرسول ﷺ فيها لم يتحول ولم يتبدل، عن طابع السماحة والرحمة والتواضع ولين الجانب، ولذلك نجد فحوى الرسائل كلها لا يتعدى أمرين، إمَّا الإسلام، وإما دفع الجزية مع بقائهم على دينهم، حيث لا إكراه في الدين، وتلك هي قاعدة الدين، وأصل التشريع .

ولسنا بصد استقصاء أو حصر لكل الكتب والرسائل فهذا أمر شرحة يطول، وليس هذا بمكان ... وإنما الهدف من وراء ذلك هو، إبراز تلك العلاقة بين الجانبين أو الطرفين.

الأول: المرسَل ... وهو رسول الله ﷺ، نبي الهدى ورسول السلام، اتخذ مبدأ السماحة ولين الجانب المتمثل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [2].

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد، المتوفي ٢٣٠هـ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج١ ص٢٦٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. أولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٥٩) .

الثاني: المرسَل إليه ... وهؤلاء هم الملوك والرؤساء ... ولا يخلوا طابع هؤلاء عن ثلاثة، إما: مهتدي، وهو الذي مَنَ الله عليه بالإسلام، وإما: ضال، وهو الذي بقى على دينه وصالح رسول الله ﷺ على دفع الجزية، وإما: فاسق فاجر، وهو الذي رد على كتاب رسول الله ﷺ ردًا قبيحًا، أو مزقه، فمزق الله ملكه، وفيما يلي بيان لذكر نماذج توضيحية لحال المرسَل، والرسَل إليه، من واقع الكتب التي أرسلها رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء .

١ ـ كتاب رسول الله ﷺ إلى قيصر الروم:

اتخذ رسول الله ﷺ دبلوماسيته في أسلوب التخاطب مع الملوك والأمراء، فهو ﷺ لم يتعاظم عليهم باسم النبوة والرسالة، ولم يحط من قدرهم، أو ينزل من شأنهم، بل كان ﷺ في غاية التواضع معهم في أسلوبه، والاحترام لهم في معاملته، فخاطبهم بأسلوب يحبونه وأرسل إليهم من سيتفاوض معهم بأسلوبهم، ويتخاطب معهم بلغتهم .

وهذا دليل قاطع يبرهن على دبلوماسية رسول الله ﷺ، في اختيار سفراءه الذين حملهم شرف تبليغ كتبه، وهم بالتالي كانوا سفراء نجباء فطنين على مستوى المسئولية التي وكلوا بها .

نجد هذا واضحًا في بعث رسول الله ﷺ سيدنا دحية بن خليفة الكلبي سفيرًا إلى قيصر الروم، وهذه السفارة تبرهن على دبلوماسية سيدنا دحية، حيث إنه لم يتكبر ولم يتعال باسم الكرامة الإنسانية أو الإسلام على من أُرسل إليه، ولم يسقط في فعل يتنافى مع تعاليم الإسلام .

فقد كان كل من قدم على القيصر لابد وأن يركع له، ولكي لا يخضع هو لهذا الأمر، وضع كتابه على منبر القيصر، عندئذ ... يأخذه القيصر قبل جلوسه، وبذلك نجا سيدنا دحية من مأزق كبير، حيث

إن القيصر ما كان يقبل أي كتاب إلا إذا ركع صاحبه له، ودخل بعد ذلك ولم يركع، وكان محتوى كتاب رسول الله ﷺ إلى قيصر الروم كالتالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبعد الهدى ... أما بعد؛؛

فإني أدعوك بدعاية الإسلام ... أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (الفلاحين) .

و﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

وكان هرقل رجلاً يعرف النجوم، وقد عرف بمبعث النبي الخاتم، فكتب إلى عماله يبحثون له عن هذا الخبر، وكان أبو سفيان رجلاً تاجرًا في بلد القيصر، فدعاه ومن معه من العرب، ودار بينهم حديث طويل كله عن رسول الله ﷺ، نسبه، وخبره، وأتباعه ... هو يساله وأبو سفيان يجيب، فلما انتهى قال الملك:

(إن كان ما يقول حقًا، فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أتى أخلص لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه) .

ثم دعا قومه قائلاً: (يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم، وتتبعون ما قال عيسى ابن مريم، فقالت الروم: وما ذاك أيها الملك؟ قال: تتبعون هذا النبي، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت، فصاحوا وتناحروا ورفعوا الصليب، فلما رأى الملك

منهم ذلك وأيس من الإيمان منهم، أي وقالوا له: أتدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيدًا لأعرابي، وقد يئس من إسلامهم، خافهم على نفسه وملكه، فسكنَّهم ثم قال لهم: إنما قلت لكم ذلك لأختبركم، ولأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحب، فسجدوا له ... فوقع عليه إثم الأريسيين كما قال ﷺ في كتابه له .

وقيل إنه أسلم وكتب بذلك كتابًا إلى رسول الله ﷺ، ولكن رسول الله ﷺ كذبه) [(١)] .

٢ ـ كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي:

بعث رسول الله ﷺ سفيره عمرو بن أمية الضمري ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله إلى ملك الحبشة ... سلم أنت ... أما بعد؛؛

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة .

وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تبتغي وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله ﷻ، وقد بلغت ونصحت فأقبلوا نصيحتي ... والسلام على من اتبع الهدى .

فأخذ النجاشي كتاب رسول الله ﷺ، ووضعه على عينه، ونزل من سريره وجلس على الأرض تواضعًا، ثم أسلم وشهد شهادة الحق، وقال:

(١) السيرة الحلبية، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، ج٣ ص٣٤٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ .

(لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته) [1] .

واسم النجاشي (أصحمة) وهو الذي آمن عنده المهاجرون الأول، وآمن بكتاب رسول الله ﷺ الذي جاءه به عمرو بن أمية الضمري، ونعاه النبي ﷺ يوم وفاته، وصلى عليه صلاة الغائب .

وقد جاء أن عمرًا لما جاء النجاشي قال له:

(يا أصحمة: عن عليَّ القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا منا، وكأنا في الثقة بك منك، لأنا لم نظن بك خيرًا قط إلا نلناه، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاضٍ لا يجور، وفي ذلك الموقع الحز، وإصابة للفصل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى بن مريم، وقد فرق النبي ﷺ رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما خافهم عليه لخير سالف وأجر ينتظر، فقال النجاشي: أشهد بالله أنه للنبي الذي تنتظره أهل الكتاب وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل وأن العيان ليس بأشفى من الخبر) [2] .

ومما نلحظه في هذا الخطاب: مدى عناية الرسول ﷺ في اختيار سفراءه، وعناية السفراء في تنفيذ ما كلفوا به بأمانة ودقة، فهذا سيدنا عمرو ابن أمية الضمري، مبعوث رسول الله ﷺ إلى النجاشي أسلم بعد انصراف المشركين من أُحُد .

رأيناه وهو يخاطب النجاشي في جرأة متناهية، وفصاحة متلازمة، وهذا مما يدل على جرأة الرجل وبلاغته، وفصاحته، وحسن منطقه وأداءه

(١) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيد الناس، المتوفي ٧٣٤هـ، ج١ ص١٣٩، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ،/ ١٩٩٣م .

(٢) عيون الأثر، م. س، ج٢ ص ٣٣٠، والسيرة الحلبية، م. س، ج٣ ص ٣٤٨ .

في ألفاظه المحبوكة، وكلماته المسبوكة، وذلك في قوله: (إن عليَّ القول وعليك الاستماع) فهذه شدة وجرأة تنذر من مبعوث إلى ملك، ولكنه بحكمته يعود فيلين، ويتقرب منه في ودادٍ فيوقل: (كأنك في الرقة علينا منا)، (وكأنا في الثقة بك منك) .

فهي كلمات يلين أمامها الصخر، وتنسى الشدة التي سبقت بين يديها، ثم يعود فيكرر الجملة بألفاظ حسان، تحمل نفس الوداد، وتسترق السمع في أدب وحسن أداء، فهو لا يرجو خيرًا إلا ناله، ولا يحذر شرًا إلا أمنه، فلم يكن أمام الملك (أصحمة) بسابقة حسناه، وحسن أداء عمرو إلا أن يعلن إسلامه، ويبعث بذلك مع هداياه إلى الرسول ﷺ .

٣ ـ كتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى:

بعث رسول الله ﷺ سفيره عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى بكتاب مختوم جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله ... إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أدعوك بداعية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس ...

قال عبد الله: فانتهيت به إلى بابه فطلبت الإذن عليه حتى وصلت إليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرئ عليه، فأخذه ومزقه، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: (اللهم مزق ملكه) .

وكتب كسرى إلى (باذان) عامله على اليمن، أن ابعث من عندك رجلين جلدين إلى هذا الرجل الذي بالحجاز فليأتياني بخبره ... فقدما

الرجلان إلى المدينة ودفعا بكتاب (باذان) إلى النبي ﷺ، فتبسم رسول الله ﷺ، ودعاهما إلى الإسلام وفرائصهما ترتعد، وقال: (ارجعا عني يومكما هذا حتى تأتياني الغد فأخبركما بما أريد) فجاءاه في الغد، فقال لهما: (أبلغا صاحبكما أن ربي قد قتل ربه كسرى في هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها)، (وأن الله تبارك وتعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله، فرجعا إلى (باذان) بذلك ....، فبعث (باذان) بإسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله ﷺ) (١) .

٤ ـ كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس:

بعث رسول الله ﷺ بكتابه إلى حاكم الإسكندرية مع سفيره سيدنا حاطب بن أبي بلتعة هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط .

سلام على من اتبع الهدى ... أما بعد؛؛؛

فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط، و ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ وختم الكتاب .

وبعث به حاطب بن أبي بلتعة، فقرأه عليه، وأحسن وفادته، وأخذ الكتاب ووضعه في حق من عاج، وكتب إلى رسول الله ﷺ كتابًا هذا نصه:

(١) راجع في ذلك: عيون الأثر، لابن سيد الناس، ج٢ ص٣٢٩، وكذلك: السيرة النبوية، لابن هشام، ج١ ص ٦٣، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، والسيرة الحلبية، ج ٣ ص ٣٤٦، ٣٤٧ .

قد علمت أن نبيًا قد بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها، ولم يزد على هذا ولم يسلم، فقبل رسول الله ﷺ هديته ... وقال: (ضنَّ الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه) (١) .

هذا ما كان من كتب لرسول الله ﷺ خارج الجزيرة العربية، أما ما كان من داخلها فهي كتب كثيرة يطول شرحها، وهي تعني مدى سياسة رسول الله ﷺ وتواضعه وسماحته ولين جانبه، وتأكيدًا لهذا المبدأ الذي علمناه، والمنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ وقرأناه في كتبه خارج الجزيرة العربية، يتكرر هذا داخل الجزيرة العربية، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (٢) .

فكتب ﷺ لملوك عُمَان، والبحرين، واليمامة، وكتب للحارس ابن شمر الغساني، وبلال بن الحارث المزني، ولبني غِفار، ولبني سُلَيم وغيرهم كثير .

ولكي لا يطول بنا المقام، اكتفينا بحديث عن كتابين، يتجلى فيهما سماحة الإسلام، ولين جانب الرسول ﷺ، وحسن سياسته، وبالغ حكمته، وفيما يلي بيان لذلك:

٥ ـ كتاب رسول الله ﷺ إلى ملكي عمان:

بعث رسول الله ﷺ مبعوثه عمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابني الجُلَندي الأزديين جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله ... إلى جيفر وعبد ابني الجُلَندي ... سلام

(١) عيون الأثر، لابن سيد الناس، ج٢ ص ٣٣٣، والسيرة الحلبية، ج٣ ص ٣٥٣ .
(٢) سورة الشورى، الآية (٧) .

على من اتبع الهدي ... أما بعد؛؛

فإني أدعوكما بداعية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين ...

فلما قرأ عبد بن الجلندي كتاب رسول الله، سأل عمرو بن العاص عما يأمر به رسول الله ﷺ وينهى عنه، فقال عمرو: يأمر بطاعة الله ﷻ، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، والزنا، وشرب الخمر، وعبادة الحجر والوثن والصليب .

فقال عبد بن الجلندي: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، ولو كان أخي يتابعني حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه، ويصير تابعًا ... ثم إن عبدًا أوصل عمرو إلى أخيه جيفر فتكلم معه حتى آلان قلبه وألِم معه أخيه عبد) [1] .

٦ ـ كتاب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوي:

بعث رسول الله ﷺ مبعوثه العلاء بن الحضرمي بعد انصرافه من الحديبية إلى المنذر بن ساوي ... جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله ... إلى المنذر بن ساوي

سلام عليك ... أما بعد؛؛؛

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ... أما بعد .

فإني أذكرك الله ﷻ فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، فإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن

(١) انظر: عيون الأثر، ج٢ ص ٣٢٤، ٣٢٥، والسيرة الحلبية، ج٣ ص ٣٥٤ .

رسلي قد أثنوا عليك خيرًا، وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته، أو مجوسيته فعليه الجزية فأسلم المنذر وحسن إسلامه .

وعلى كل: فالكتب كثيرة، والرسائل أكثر، وسواء قلَّت الكتب، أو كثرت الرسائل، فقد حققت الهدف في عموم الرسالة، وسماحة الإسلام، وتواضع الرسول، وحسن تفاوضه، وأسلوب تخاطبه، ولين جانبه ﷺ .

ويؤكد لنا ذلك: قيام النبي ﷺ بإرسال الكتب والرسائل، وندب الرسل لحملها، وبعثهم إلى الملوك والأمراء، فهذا دليل على أن ذلك وسيلة من وسائل التبليغ، يحمل في طيها منهج الرسول ﷺ في اللين، وحسن الخلق، وتلك غاية في الأهمية .

وقفة مع رسل رسول الله ﷺ:

لا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ، إنما يخاطب بنور الوحي جميع البشر، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وليخرجهم من الظلمات إلى النور .

وكون النبي ﷺ يختار هؤلاء المبعوثين، ويرسلهم إلى خارج الجزيرة العربية وداخلها، فهذا جزء من مضمون الرسالة، وأن ذلك لو لم يكن من سيدنا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، لقلنا إنه غاية في التوفيق، وأقوم في التبليغ، وأنجح في الفائدة.

أمَّا وأنه منه ﷺ فإن موضع الحكمة قد اقتضى ذلك، فقد بلغ السفراء مبلغًا كبيرًا في الفطنة، والذكاء، ودماثة الخلق، وحسن الهيئة، والشجاعة، وتلك بعض صفاتهم وسماتهم .

سيدنا دحية بن خليفة الكلبي ... قالوا في جماله: إنه كان من أجمل

الناس خلقًا، ولقد بلغ من حسن جماله ... أنَّ جبريل عليه السلام، وهو عظيم في مكانته، كان ينزل على صورته .

والمهم في هذا كله: أنه ﷺ مرسل إلى هرقل عظيم الروم، وهم قوم يقدرون الجمال حق قدره، ولا غرو فقد انتشر فيهم من قبل عبادة الأبطال، والأهم من ذلك كله جمال الخلق، وكريم الصفات، بما يتلاءم وقدر الرسالة والتعبير عن صاحبها عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

ولقد عرفنا من قبل موقف سيدنا عمرو بن أمية الضمري، وكيف وجه خطابه إلى ملك الحبشة بكل ثقة وجرأة، وإيمان بالله ورسوله، ولم يخف من بطش حاكم ولا سطوة سلطان، وبكل إيمان خاطب الملك بأسلوب يلين له الصخر، ولم نر بعد ذلك حسن استجابة كما رأيناها من النجاشي ملك الحبشة .

ولا يختلف غيرهما عنهما، فكلهم في الفضل سواء تعلموا من رسول الله ونهجوا نهج رسول الله ﷺ، وناهيك عن مثل عمرو بن العاص، والعلاء بن الحضرمي، وحاطب بن أبي بلتعة، وغيرهم، والوقوف عندهم واجب ولو بإشارة توضح ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ في جمال التعبير، وحسن الأداء، والفطنة والذكاء، والسياسة، والتدبير .

وأخيرًا جاءت نتيجة الكتب والرسائل توضيحًا لسنة الله ﷻ في خلقه، فمنهم من هدى ومنهم من حقت عليه الضلالة .

﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا ﴾ [1] .

❁ ❁ ❁

(١) سورة الإسراء، الآية (١٥) .

المبحث الثاني
الإعداد والاستعداد الدائم لمناوئي الدعوة في الجبهتين الداخلية والخارجية

وينتظم في مسلك هذا المبحث ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: التأكيد على حرمة موالاة الأعداء .

المطلب الثاني: تجهيز وإعداد قوة الردع الاستراتيجي المطلوب للمواجهة .

المطلب الثالث: إعلان الجهاد ضد المعتدين والمتآمرين .

وفيما يلي سوف نلقي الضوء على هذه المطالب الثلاثة ...

المطلب الأول
التأكيد على حرمة موالاة الأعداء

إذا تصفحنا القرآن الكريم، وتدبرنا آياته، فسوف نجده قد وضع قاعدة تحدد أساس هذه العلاقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [1] .

يقول المفسرون: (أي إنما ينهاكم الله ﷻ عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فقاتلوكم وأخرجوكم، وعاونوا على إخراجكم، كمشركي مكة، فإن بعضهم سعوا في إخراج المؤمنين وبعضهم أعان في ذلك ... فينهاكم الله عن موالاتهم ويأمركم بمعادتهم .

ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، لأنهم تولوا غير الذي يجوز لهم أن يتولوهم، ووضعوا ولايتهم في غير موضعها وخالفوا أمر الله في ذلك) [2] .

---

(١) سورة الممتحنة، الآية (٩) .

(٢) تفسير ابن كثير، ج٤ ص ٣٤٩، وتفسير المراغي، ج١٠ ص٧٠ .

وتحت هذه القاعدة تأتي ممارسات عديدة في مثل قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ (١) .

ففي هذه الآية الكريمة يبين الله ﷻ أنه من المستحيل أن يجمع المؤمن بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وبين مودة أعداء الله ورسوله، لأن إيمان المؤمن يفسد مودة الكافرين، لأن من كان مؤمنًا حقًا لا يوالي كافرًا أبدًا، فمن أحب أحدًا امتنع أن يوالي عدوه، والمراد من موالاته مناصحته وإرادة الخير له في الدين والدنيا .

ثم بين الله ﷻ أن المؤمنين الصادقين في إيمانهم لا يمتنعون من موالاة من حاد الله ورسوله الغرباء فقط، بل إنهم لا يوالون من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب الناس إليهم ... كالآباء الذين تجب طاعتهم ومصاحبتهم في الدنيا بالمعروف، أو الأبناء الذين هم فلذات الأكباد، أو الإخوان الذين هم الناصحون لهم، أو العشيرة التي يعتمد عليها بعد الإخوان .

وخلاصة ذلك: إنه لا يجتمع إيمان مع مودة أعداء الله، لأن من أحب أحدًا امتنع من محبة عدوه، فإذا حصل في القلب مودة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان الصحيح، وكان صاحبه منافقًا .

أخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ اللهم لا تجعل لفاجر ولا لغاشٍ عليَّ يدًا ولا نعمة، فإني وجدت فيما أَوْحيتَ إليَّ ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ

(١) سورة المجادلة، الآية (٢٢) .

وَرَسُولَهُۥ ﴾ ... ﴾ [١] .

إن الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ ... أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: حدثت أن أبا قحافة سب رسول الله ﷺ، فصكه أبو بكر صكةً سقط بها على وجهه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: ﴿ أفعلت ذلك يا أبا بكر؟ قال: نعم، قال: لا تعد، قال: والله لو كان السيف قريبًا مني لقتلته ﴾ [٢] فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية .

وقيل: نزلت في أبي عبيدة بن الجراح ... أخرج ابن أبي حاتم والطبراني، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في السنن عن ابن عباس { قال: ﴿ جعل والد أبي عبيدة يتصدى له يوم بدر، وأبو عبيدة يتحاشاه ويحيد عنه، فلما أكثر، قصده أبو عبيدة فقتله، فنزلت هذه الآية ﴾ [٣] .

يقول ابن كثير: أنزلت هذه الآية ... ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ في أبي عبيدة عامر بن الجراح، حين قتل أباه يوم بدر، ولهذا قال عمر بن الخطاب ﷺ حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة ﷺ ولو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته .

وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ ﴾ نزلت في أبي عبيدة قتل اباه يوم بدر، ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ في الصديق، همَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ ﴾ في مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ، ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ في عمر بن الخطاب قتل قريبًا له

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره، ج٤ ص ٣٣٠، والسيوطي في الدر المنثور، ج٨ ص ٨٧، طبعة دار الفكر، بيروت .

(٢) أسباب النزول، للواحدي، ج١ ص ٤١٤، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، ط. الثانية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، وكذلك: تفسير المراغي، ج١٠ ص ٢٨ .

(٣) أسباب النزول، للواحدي، ج١ ص ٤١٤، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، ط. الثانية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، وكذلك: تفسير المراغي، ج١٠ ص ٢٨ .

يومئذ أيضًا، وفي حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد عتبة يومئذ) [1] .

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ ﴾ [2] .

ففي هذه الآية ينهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم هدَّد وتوعد من يفعل ذلك فقال: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ .

قيل: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول ... جاء عبادة بن الصامت الخزرجي إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: إن لي موالي من يهود كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله، فقال عبد الله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية مواليَّ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي: ﴿ يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه، قال: قد قبلت فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ ﴾ [3] .

وروي أن النبي ﷺ رفض أن يستعين في الحرب بمشرك، وذلك عندما خرج لغزوة بدر، تبعه رجل من المشركين، كان مشهورًا بالشجاعة، ففرح به الصحابة، فقال: يا رسول الله جئت لأتبعك، وأصيب معك، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿ تؤمن بالله، قال: لا، قال: فارجع فلن أستعين بمشرك،

(١) أسباب النزول، ج١ ص ٤١٥، وكذلك: تفسير ابن كثير، ج٤ ص٣٢٩ .
(٢) سورة المائدة، الآية (٥١) .
(٣) ابن كثير، ج٢ ص ١٣٣، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط. الثانية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م .

ثم تبعه إلى مكان آخر، فقال له مثل الأولى، فقال: لن أستعين بمشرك، ثم تبعه إلى مكان آخر، فقال له ﷺ، تؤمن بالله ورسوله؟ قال: نعم، فانطلق، وجاءه جماعة من المشركين فسألوه أن يكونوا معه، فقال لهم ﷺ: أسلمتم؟ قالوا: لا، فقال: لا نستعين بالمشركين على المشركين ﴾ (١) .

ولقد طبق الصحابة الكرام رضوان الله عليهم هذا المبدأ في العلاقات العسكرية في أول غزوة في الإسلام، وعرفنا موقف أبي عبيدة من أبيه، ومصعب من أخيه، وعمر من قريبه، وحمزة، وعلي، والحارث، من عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة، وهم أقرباؤهم من المشركين .

وعلى كل: فمع واقع الآيات القرآنية، ومما سبق بيانه، نعلم أن هذا يؤكد على أنه لا يجوز لأي مسلم أن يتخذ من غير المسلم وليًا له، تشيع بينهما آصرة التعاون، وهذا من الأحكام الإسلامية والسياسة الشرعية التي لم يقع خلاف بين المسلمين فيها .

(١) رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: كراهة الاستعانة في الغزو بكافر، برقم ١٥٠ (١٨١٧)، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي .

المطلب الثاني
تجهيز وإعداد قوة الردع الاستراتيجي المطلوبة للمواجهة

والإعداد والاستعداد يكون بتحصيل القوة اللازمة بكل ما تعنيه هذه الكلمة فهي تشمل القوة المادية المتمثلة في السلاح والعتاد، وتجهيز الجيوش والإنفاق عليها، كما تشمل أيضاً القوة المعنوية وهي مدى استعداد المقاتلين لخوض المعارك دفاعًا عن الإسلام فلقد حمل أصحاب النبي ﷺ راية الدين وخاضوا الحروب، وبعد انتهاء عصر النبوة ساحوا في الأرض فتفرقوا فيها ومات كثير منهم في غير أوطانهم .

والآية التي تشير إلى ضرورة تجهيز قوة الردع الاستراتيجي هي آية سورة الأنفال حيث يقول الحق جل وعلا: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (١) .

وفي مضمون هذه الآية الكريمة وضحت السيرة النبوية سير الحرب، ووضعت للقتال منهجًا يلتزم به المقاتلون المسلمون، وفق خطط حربية محكمة يصوغها القائد العظيم سيدنا محمد ﷺ تؤدي إلى الاستعداد التام للمعركة ماديًا ومعنويًا .

وهذا فيما يتعلق باستعداد المقاتلين للمعركة، وهناك أمر آخر لا يقل أهمية عن سابقه وهو مجموعة الأحكام التشريعية التي تحكم سير المعركة.

وينطوي تحت الأمر الأول مبدأ التشاور وكتمان الأسرار التي تتعلق بالحرب وما يحيط بها .

١ ـ مبدأ التشاور وعدم الاستبداد بالرأي:

ويتثمل ذلك في قول الله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ

(١) سورة الأنفال، الآية (٦٠) .

فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [١] .

وتطبيقًا لهذا المنهج ... فقد اتبعه رسول الله ﷺ يوم بدر عندما قال لأصحابه: (أشيروا عليَّ أيها الناس) فتكلم المهاجرون وأحسنوا، ولكنه ﷺ ظل ينظر في وجوه أصحابه ويقول: (أشيروا عليَّ أيها الناس) حتى تكلم الأنصار، فسر بذلك رسول الله ﷺ ... وحتى بعد انتهاء المعركة استشار أصحابه في شأن الأسرى .

وفي تطبيق هذا المنهج ظهور لحكمة جليلة ... هي أن مبدأ الشورى صفة ذاتية للمسلمين وللمجتمع الإسلامي، ولا يجوز بأي حال من الأحوال التخلي عن هذا المبدأ مهما كانت الأسباب والرسائل .

٢ ـ الكتمان بسير المعركة:

وهذا من منهج الإسلام في الحرب، وتخطيط لسير ونجاح العملية الحربية، لأجل ذلك اتخذه رسول الله ﷺ، فكان إذا أراد غزوة وَرَّى بغيرها، وأخفى ذلك مطلقًا، ويشهد لذلك يوم فتح مكة، فقد أمر رسول الله ﷺ الناس أن يتجهزوا وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة وهي تُجِّهز لرسول الله مطلبه، فقال أي بنية، أمركن رسول الله ﷺ بتجهيزه، قالت: نعم، قال: فأين ترينه يريد، قالت: لا والله ما أدري ... ومن تمام الكتمان على قريش، قال ﷺ: ﴿ اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها ﴾ .

ويدل على ذلك أيضًا، أن سيدنا حاطب بن أبي بلتعة، لما علم بمسيرة رسول الله ﷺ، أرسل لأهل مكة كتابًا يخبرهم فيه بذلك، فعلم رسول الله بصنيعه، فأرسل في طلب الكتاب حتى لا تعلم قريش بمسيرته ﷺ،

(١) سورة آل عمران، الآية (١٥٩) .

وحتى لا تراق قطرة دم واحدة .

وما أعلن عن ذلك صراحة إلاَّ في غزوة تبوك لبعد المسافة، ومشقة الطريق، ولكي يتخذ المسلمون العدة التي تأويهم، والمئونة التي تكفيهم .

٣ ـ تعبئة الجيش (وضع الاستعداد):

ويتلخص ذلك في نقاط:

- اتخذ رسول الله ﷺ يوم أحد خمسين راميًا وجعلهم على الجبل، واستعمل عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم: (قوموا على مصافكم هذه، والزموا أماكنكم، واحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا) [(١)] .
- جاء رافع بن خديج، وسمرة بن جندب، يوم أحد يشتركان في الحرب والقتال مع المسلمين، فردَّهما رسول الله ﷺ لصغر سنهما، وكان عندهما خمس عشرة سنة، فمازالا يلحان على رسول الله ﷺ حتى أجازهما .
- أخذ أبو دجانة سيفًا من يد رسول الله ﷺ وراح يتبختر به، فقال ﷺ: ﴿ إن هذه مشية يكرهها الله ورسوله إلا في مثل هذه المواطن ﴾ أي أن الكبْر من الأمور المُحَرَّمَة لكنه في مواطن القتال مع الأعداء من الأمور المباحة لما له من أثر نفسي على الأعداء .

٤ ـ الطاعة وعدم التنـازع:

إن من أهم أسباب النصر على الأعداء ... طاعة المقاتلين أوامر قائدهم، وعدم التنازع فيما بينهم، وضابط ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [(٢)] .

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج٢ ص ٤٠، باب: غزوة رسول الله ﷺ أحدًا، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م .

(٢) سورة الأنفال، الآية (٤٦) .

يقول ابن كثير: (أمر الله تبارك وتعالى المقاتلين من المسلمين أن يتحلوا بالثبات والصبر على قتال العداء، فلا يفروا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله على كل حال، ولا ينسوه، ويستعينوا به ويستغفروه، ويتوكلوا عليه، ويسالوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم فيختلفوا، فيكون ذلك سببًا في تخاذلهم وفشلهم، وذهاب وحدتهم وقوتهم وهيبتهم .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم مثالاً في الشجاعة والإقدام والائتمار بما أمرهم الله ورسوله، والامتثال فيما أرشد إليه الدين الحنيف حتى أصبحوا نوعًا فريدًا مميزًا على مدار التاريخ كله، لم يصل أتباع نبي من الأنبياء قبل الرسول ﷺ إلى مثل ما وصلوا إليه، ولن يصل أحد بعدهم.

ولذلك: فإنهم بتوفيق من الله تعالى، ثم ببركة رسول الله ﷺ وطاعته فيما أمر، فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا مع قلة عددهم، وكثرة أعدائهم، فقهروا الجميع حتى عَلتْ كلمة الله تعالى وظهر دينه) [(١)] .

ومع أن الإسلام أمر المسلمين بالثبات أمام الأعداء وقتالهم استماتة إلا أنه نهى عن تمني لقاء الأعداء، فقال ﷺ: ﴿ لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ﴾ [(٢)] .

□

(١) تفسير ابن كثير، ج ٤ ص ٧٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م .
(٢) سبق تخريج الحديث عند مسلم، رقم (١٧٤١)، وأبي داود، رقم (٢٦٣١) .

الأمر الثاني: الأحكام التشريعية في القتال:

وضع الإسلام لسير المعركة حدودًا وقيودًا للمجاهدين في سبيل الله وأمرهم بالالتزام بها ولا يخرجوا عن نطاقها، وذلك لأن الحرب منهج اضطر إليه المسلمون لمواجهة صنف من الناس يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم ينكرونه بدافع الحقد الأعمى والتعصب الذميم، ولذلك نظمت الشريعة الإسلامية تلك الحدد والقيود في أحكام تشريعية يجب مراعاتها للعمل بها واتباع سبيلها، وتمثلت هذه الحدود وتلك القيود في:

١ . أحكام يجوز للمقاتل ممارستها بسبب طبيعة الحروب .

٢ . أحكام يمنع الإسلام المقاتل من ممارستها ... وبيان ذلك فيما يلي:

أولاً: الأحكام التي يجوز للمقاتل ممارستها أثناء المعركة بسبب طبيعة الحروب المقتضية لهذه الأحكام وتتمثل في أمور كثيرة منها:

أ ـ الخدعة في الحرب: وهذا مسلك اتخذه المسلمون يوم أن جاء نُعيم بن مسعود ﷺ مسلمًا، فعرض على رسول الله ﷺ تنفيذ أي أمر يخدم الإسلام والمسلمين فقال له: (إنما أنت رجل واحد فينا، ولكن خذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة) [1] .

فأتى نعيم بني قريظة فأقنعهم أن يأخذوا رهائن من قريش حتى يتورطوا في قتال مع رسول الله ﷺ، ثم ذهب إلى قريش وغطفان، وأنبأهم أن بني قريظة يريدون أن يأخذوا رهائن من أشرافهم ويسلموهم لمحمد فيقتلهم، فإن طلبوا منكم فلا تعطوهم، وبذلك: أوقع الخلاف بينهم، وأصبح كل فريق يتهم الآخر بالغدر والخيانة .

□

(١) فقه السيرة، د/ البوطي، ص ٣١٨ .

ب ـ التحرك الاستراتيجي (التورية): وهذا التحرك، يضلل العدو عن الوجهة الحقيقية للجيش، وهذا ما يسمى عسكريًا بالهجوم الكاذب، والمناورات المخادعة، وكل ذلك مباح في نظر الإسلام، وللقائد المسلم له أن يحتال على دحر العدو أثناء المعركة بأي خدعة أو وسيلة تهزمه وتدمره وتقضي عليه، قال النووي: (واتفقوا على جواز خدعة الكفار في الحرب كيفما أمكن، إلا أن يكون فيه نقض للعهد) (١) .

جـ ـ الكذب: كل كذب فيه فائدة، أو دفع مضرة عن الجيش الإسلامي أثناء المعركة، فهو عمل مباح عسكريًا من وجهة النظرة الإسلامية ... يقول ﷺ: ﴿ يا أيها الناس ... ما يحملكن أن تتابعوا على الكذب كتتابع الفراش في النار؟ الكذب كله على ابن آدم حرام، إلا في ثلاثة خصال، رجل يكذب على امراته ليرضيها، ورجل كذب في الحرب فإن الحرب خدعة، ورجل كذب بين مُسْلِمَيْنِ ليصلح بينهما ﴾ (٢) .

فيباح للمقاتل المسلم الكذب في كل حالة يكون فيها ضروريًا لخدمة المعركة العسكرية، وذلك صونًا لأسرار الجيش، أو تضليلاً لاستطلاعات العدو، إنقاذًا لنفسه أو سريته، أو كمينًا لأسر مجموعة من عسكر العدو، وهناك أمور أخرى كثيرة لا يسمح المقام لذكرها .

ثانيًا: الأحكام التي يمنع الإسلام من ممارستها:

وتتمثل هذه الأحكام في: المثلة، والغلول، والغدر، والفرار من الزحف، وضابط هذه الأشياء الحق، والعدل، والإحسان، والرحمة، وهذا هو بعينه ما يعنينا في هذا البحث، لأن هذه الأمور هي التي تميز الجهاد

(١) الإمتاع، للمقريزي، ج١ ص ٥٠١ .

(٢) الجامع الكبير، للسيوطي، ج٢٤ ص١٦٤، رقم (٤١٩)، والحديث رواه أيضًا الإمام/ أحمد، في مسنده، من حديث أسماء بنت يزيد، ج٤٥ ص ٥٧٤، برقم (٢٧٥٩٧) .

الإسلامي عن غيره من أنواع الحروب الأخرى التي يقوم بها العداء الذين امتلأت قلوبهم غيظًا وحقدًا على المسلمين، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [1] .

وهذا المبدأ . مبدأ الحق والعدل والإحسان والرحمة . هو الذي بات واضحًا في سيرة رسول الله ﷺ، ولذلك كثرت فيه وصاياه لرسله ومبعوثيه حينما كان يوجههم إلى السرايا.

فعلى سبيل المثال أوصى رسول الله ﷺ سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ حينما وجهه في سرية إلى اليمن قائلاً له: (امض ولا تلتفت، فقال علي: يا رسول الله كيف أصنع؟ فقال: إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً، فإن قتلوا منكم قتيلاً، فلا تقاتلوهم، حتى تريهم أناة، ثم قل لهم: هل لكم أن تقولوا لا إله إلا الله؟ فإن قالوا: نعم، فقل لهم: هل لكم إلى أن تخرجوا من أموالكم صدقة تردونها على فقرائكم؟ فإن قالوا: نعم، فلا تبغ منهم غير ذلك، والله لأن يهدي الله على يديك رجلاً واحدًا خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت .

فخرج في ثلاثمائة فارس، فلقي جمعًا فدعاهم إلى الإسلام فأبواْ، ورموا بالنبل والحجارة ساعة، فصف علي ﷺ أصحابه ودفع باللواء إلى مسعود بن سنان السلمي، وحمل عليٌّ بأصحابه على القوم حتى انهزموا، فلم يتبعهم الجيش الإسلامي، ودعاهم إلى الإسلام فأجابوا، وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام وقالوا: نحن على من وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله) [2] .

إذن: هذه مبادئ إنسانية، وفضائل أخلاقية، أدخلها الإسلام في

(١) سورة النساء، الآية (٧٦) .

(٢) الإمتاع، للمقريزي، ج١ ص ٥٠٢، وعيون الأثر، ج٢ ص٢٧١، والحلبية، ج٣ ص٢٢٥ .

سلوك المقاتلين لإعلاء حكمة الله، ورباهم عليها قائدهم الأعلى رسول الله ﷺ، فكان صلوات الله عليه وسلامه يدعوهم دائمًا إلى التمسك بالفضائل ومكارم الأخلاق، من حق وتقوى وعدل وإحسان ورحمة، مع الناس جميعًا، وذلك لأن النفوس ساعة القتال تندفع إلى ما يخالف ذلك، إذا لم تتمسك بهذه المبادئ السامية .

ولهذا جاء القرآن الكريم موضحًا هذا ... فمثلاً: مبدأ المعاملة بالمثل عند الاعتداء، فمن اعتدى دفع اعتداؤه وشره، ومن قاتل يقاتل، واشترط في ذلك أن يقترن هذا المبدأ وجوب التقوى، لأن التقوى هي أساس التمسك بالفضائل ... فقال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [1] .

فلقد أمر الله ﷻ رسوله ﷺ بأن يرد اعتداء المعتدي بالمثل، وبالعدل حتى مع المشركين، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [2] .

فهذه الآية الكريمة على جانب كبير من الأهمية، إذ تحدد للمسلمين خطة كاملة في التعامل مع غير المسلمين أثناء القتال، ونلاحظ في تلك الخطة ما يلي:

١ ـ **العدل**: وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ فالقتال مقصور على المقاتلين لا غير، ولا تتعدى المواجهة إلى غيرهم من نساء أو أطفال .

٢ ـ **الإحسان**: وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) سورة البقرة، الآية (١٩٤) . (٢) سورة البقرة، الآية (١٩٠) .

ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ فلا اعتداء في القتال، بل يفترض على المقاتلين الإحسان في القتل، فلا يكون تمثيلاً ولا تعذيبًا، ولا غلولاً، فالفضيلة وتقوى الله وعدم الاعتداء هم زاد المقاتلين في سبيل الله قبل خروجهم للقتال .

وعدم الاعتداء يدخل فيه البعد عن ارتكاب المناهي مثل: المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم، ولا قتال فيهم، وكذلك الرهبان وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة .

وذلك لأن الإسلام حرم كل هذا، والأدلة على ذلك كثيرة منها: ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس { قال: ﴿ كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: اخرجوا بسم الله قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله لا تعتدوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع ﴾ [1] .

ولقد حرص الإسلام على تطبيق هذا المبدأ (الإحسان) ففي فتح مكة لمحَّ سيدنا سعد بن عبادة أمام أبي سفيان بقوله: (اليوم يوم الملحمة، اليوم تستباح فيه الكعبة) فقال أبو سفيان لرسول الله ﷺ: أمرت بقتل قومك؟ قال: لا، فذكر له ما قاله سعد بن عبادة، ثم ناشده الله والرحم، فقال ﷺ: يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشًا وتكسى فيه الكعبة، وأرسل ﷺ إلى سعد فأخذ منه الراية ودفعها إلى ابنه قيس .

روي أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ إن الله حرم مكة، فقيل له: إن خالد بن الوليد يقتل، فقال: قم يا فلان فقل له فليرفع القتل، فأتاه الرجال فقال له: عن نبي الله يقول لك اقتل من قدرت عليه، فقتل سبعين ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير، ج١ ص ٥٢٤، والحديث رواه الإمام/ أحمد، في المسند ٣٠٠/ ١ .

فإن الرجل لم يفهم قصد رسول الله ﷺ، ولا مراده، بدليل أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ ألم أنهه عن القتال ﴾ فاعتذر إليه فسكت، فقال ﷺ: ﴿ قضاء الله خير ﴾ .

ومما يدل على مدى سماحة الإسلام في مثل هذه المواطن، أن رسول الله ﷺ، حينما فتح مكة، قال: يا معشر قريش، ماذا ترون أنِّي فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال: مَثَلي وَمَثَلُكُم كما قال يوسف لإخوته: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [(١)]، اذهبوا فأنتم الطلقاء ﴾ [(٢)] .

ويتعلم صحابة رسول الله ﷺ من ذلك، فيتبعونه بدقة كاملة، ومما ورد في ذلك، ما رواه عقبة بن عامر الجهني، أن عمرو بن العاص، وشرحبيل ابن حسنه، بعثا بريدًا لأبي بكر الصديق برأس فأنكر أبو بكر عليهما ذلك، فقال له عقبة بن عامر الجهني: (يا خليفة رسول الله، فإنهم يصنعون بنا ذلك، فقال: فاسْتِنانٌ بفارس والروم؟ لا يحمل إلى رأس، فإنما يكفي الكتاب والخبر)[(٣)]، وفي رواية قال لهم: لقد بغيتم. أي تجاوزتم الحد.

ومما يتصل بالمثلة ... التعذيب بالنار، فقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك أشد النهي، وجعله اعتداء على حق الألوهية، فقال: ﴿ لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار ﴾ [(٤)] .

---

(١) سورة يوسف، الآية (٩٢) .

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، ج٤ ص ٣٤٠، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، دار إحياء التراث العربي .

(٣) شرح السير الكبير، السرخسي، ج١ ص ١٠٠، باب: حمل الرؤوس إلى الولاة، الناشر: الشركة الشرقية للإعلانات، بدون رقم للطبعة، ١٩٧١م .

(٤) السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، محمد بن أحمد الصوياني، ج٢ ص ٢٨٥، مكتبة العبيكان، ط. الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، والحديث رواه أبو داود في السنن، كتاب: الجهاد، باب: في كراهية حرق العدو بالنار، ج٢ ص ٥٤، برقم (٢٦٧٣) .

وروى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: بعثنا رسول الله ﷺ في بعث، فقال: ﴿ إن وجدتم فلانًا وفلانًا فأحرقوهما بالنار، ثم قال الرسول حين أردنا الخروج: إني أمرتكم أن تحرقوا فلانًا وفلانًا، وإن النار لا يعذب بها إلاَّ الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما ﴾ .

وعلى كل: فالباب في ذلك طويل ... ولكن يمكن القول: بأن الإسلام كان حريصًا كل الحرص على أن يأخذ بمبدأ المعاملة بالمثل، وشرط في ذلك أن يكون المثل مصاحبًا للتقوى، وذاك شعار الإسلام، الذي ربى رسول الله ﷺ صحابته عليه، لأنه لا يصح في منهج الرسالة الإلهية التجافي عن العدالة والفضيلة مهما كان .

فإذا استبيح في القتال الدماء والأموال، فإنه لم تُستبح الفضيلة ولا العدالة، ولا تضيع الكرامة الإنسانية، فتلك قيود للمسلم تربى عليها ولا يتخلى عنها فحظة من لحظات حياته، وإن كان يعلم علم اليقين أن الذي يقاتله قد أذاقه ألوانًا من العذاب .

ولا أكثر من تجمع قريش على رسول الله ﷺ قبل الهجرة ليقتلوه. ولقد جرَّعوه كؤوس العذاب ألوانًا، فصبر واحتسب ... ومع ذلك: عندما فتح الله عليه مكة، جمعهم وكان بوسعه أن يرد لهم الصاع مرتين أو أكثر، ويكيل لهم العذاب كيلاً، ويريهم العذاب ألونًا كما كانوا يفعلون، ولا مانع له ﷺ من ذلك .

ولكنه ﷺ لم يتخل عن تربية ربه له في حسن الخلق، فلم يدع الرأفة والرحمة والإحسان، بل والفضائل كلها عن ساحته، ولا الشهامة عن كريم خصاله، فجمعهم، وخطب فيهم خطبة لاَنَتْ لَهَا الْقُلُوبْ، وانصدعت لها الصدور ... (ماذا تظنون أني فاعل بكم ... اذهبوا فأنتم الطلقاء)، ولقد

صدق فيه قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [١] .

وقوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [٢] .

إذن: فالقتال في نظر الإسلام ليس ثأرًا ولا انتقامًا، ولا حبًا في سمعة ولا رغبة في مكاسب، إنه فقط لتكون كلمة الله هلي العليا، فهو تأديب، وشفقة ورحمة على الصادين عن المعروف، المعادين للحق .

ولهذا نزلت الآيات الكريمة توضح حكمًا شرعيًا لا يجوز مخالفته بأي حال من الأحوال مهما كانت فعلة المشركين الشرسة الانتقامية الخبيثة، فلا مِثلة أبدًا، لأنها تتجافى مع حكمة القتال في الإسلام .

رُوي أن رسول الله ﷺ بعث بعثًا للجهاد فأمرهم بقوله: ﴿ سيروا باسم الله، في سبيل الله تقاتلون أعداء الله لا تغلوا ولا تقتلوا وليدًا ﴾ [٣] .

وفي الحديث عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ﷺ، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلاً صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ [٤] .

وعن ابن عباس { قال: ﴿ كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: اخرجوا باسم الله تعالى، فقاتلوا في سبيل الله مَنْ كَفَرْ بالله، ولا تغدروا ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع ﴾ [٥] .

□

(١) سورة القلم، الآية (٤) .

(٢) سورة التوبة، الآية (١٢٨) .

(٣) سنن ابن ماجة، كتاب: الجهاد، باب: وصية الإمام، ص ٤٣١، رقم (٢٨٥٧) .

(٤) رواه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في دعاء المشركين، ص ٤٠٣، رقم (٢٦١٤)، والسيوطي في جمع الجوامع، برقم (٤٥٦٠) .

(٥) رواه الترمذي في كتاب: الديات، باب: ما جاء في النهي عن المثُلة، ص ٣٣، برقم (١٤١٢) .

المطلب الثالث
إعلان الجهاد ضد المعتدين والمتآمرين

الجهاد مصطلح إسلامي مشتق من الجهد بمعنى الطاقة أو المشقة، أي أن الجهاد هو بذل الجهد والطاقة والمشقة في مقاوم أمر ما طاعة لله تعالى .

(والجهاد يمثل فريضة من أبرز الفرائض الإسلامية، وهو يوضح الهدف الكبير الذي يسعى المسلمون إلى تحقيقه، وهو حرية اعتناق الناس للإسلام في سائر أرجاء الأرض، وتكوين القوة العسكرية والسياسية اللازمة لدعم هذه الحرية وحماية المسلمين الجدد، ورغم أن اعتناق الإسلام على صعيد الأفراد لا يمكن أن يتحقق بالقوة إذ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [1] .

ولكن الإعلان عنه والتمكين له وحماية معتنقيه في سائر المعمورة يقتضي التفوق على القوى السياسية والعسكرية العالمية الأخرى، خاصة في العالم الذي ظهر فيه الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا حيث كانت الحكومات تمنع أتباعها من اعتناق الإسلام وتوقع بالمسلمين الفتنة مثل ما حدث من قبل الملأ من قريش بمكة، ومثل موقف الفرس والروم المتاخمين لجزيرة العرب في الشام ومصر، وقد أوضحت النصوص الإسلامية أن تشريع الجهاد ليس مؤقتًا لظرف طارئ وإنما هو فرض ديني دائم، ففي الحديث: ﴿ من مات ولم يغزو ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق ﴾ [2] ... وهو من فروض الكفاية إلا إذا غُزيت ديار الإسلام في عقرها فيتعين على الجميع الدفاع عنها) [3] .

وإن أخلاقيات الحرب في الإسلام تنبئ عن طبيعتها وأهدافها وسمو

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥٦) .

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، كتاب: الإمارة، باب: من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو، برقم ١٥٨ (١٩١٩) .

(٣) السيرة النبوية الصحيحة، محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، د/ أركم ضياء العمري، ج٢ ص ٣٣٩، الطبعة السادسة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

تشريعها، (ورد أن أبا بكر ﷺ بعث جيوشًا إلى الشام، فخرج يمشي معه يزيد بن أبي سفيان . وكان أمير ربع من تلك الأرباع . فزعموا أن يزيد قال لأبي بكر الصديق ﷺ: إما أن تركب، وإما أن أنزل، فقال له أبو بكر ﷺ: ما أنت بنازلٍ ولا أنا براكب، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله، قال: إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له، وستجد قومًا فحصوا عن أوساط رؤوسهم من الشعر فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف، وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبيًا، ولا كبيرًا هرمًا، ولا تقطعن شجرًا مثمرًا، ولا تخربن عامرًا، ولا تعقرن شاه ولا بعيرًا إلا لمأكله، ولا تحرقن نخلاً ولا تغرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن) [(١)] .

يقول الأستاذ/ علي الطنطاوي وهو يشرح حقيقة الجهاد في سبيل الله ومقاصده: (وأن الإسلام لم ينتشر بالسيف، بل يرجع الفضل فيه إلى الأخلاق الفاضلة العالية التي كان المسلمون يحملونها ويتسمون بها في دعوتهم إليه:

ضل قوم زعموا أن الإسلام إنما انتشر بالسيف، لا والله، إنما انتشر بمثل هذه الأخلاق السماوية، إنما فتح المسلمون ثلاثة أرباع العالم المتمدن بهذا الإيمان الذي ملأ قلوبهم، وهذا النور الذي أشرق على نفوسهم، وهذه القوة التي عادت بها عليهم عقيدة التوحيد، وإن الفتح الإسلامي لهو الفتح العظيم الذي لم يعرف التاريخ فتحًا مثله، وكثير هم الفاتحون الذين فتحوا بلادًا واسعة بسيوفهم، وأخضعوها بجنودهم، وحكموها بقوتهم وسطوتهم، ولكن ليس فيهم مثْل المسلمين الذين فتحوا البلاد بإيمانهم، وفتحوا القلوب بعدلهم، وفتحوا العقول بعلمهم، فكانوا

(١) السنن الكبرى، للبيهقي، كتاب: السير، باب: ترك قتل من لا قتال فيه من الرهبان، برقم (١٨١٤٨)، عن يحيى بن سعيد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .

أصحاب السلطان، وكان دعاة الإيمان .

ملكنا فكان العدل منا سجية فلما ملكتم سال الدم أبطح
وحلَّلتم قتل الأسارى، وطالما غَدونا على الأسرى نمن ونصفح
فَحسْبُكُمْ هذا التفاوت بيننا فكل إناء بالذي فيه ينضح [1]

وقد أكدت الشريعة الغراء في الكتاب والسنة على مشروعية الجهاد، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [2] .

وقوله سبحانه: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3].

وقوله ﷻ: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [4] .

وقوله: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [5] .

ومن السنة: عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: ﴿ دلني على عمل يعدل الجهاد، قال: لا أجده، قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تُفطر؟ ﴾ [6] قال: ومن يستطيع ذلك؟، قال أبو هريرة: (إن فرس المجاهد لَيَسْتَنُّ في

(١) الفتح الإسلامي، علي الطنطاوي، مجلة الرسالة، القاهرة، السنة (١٤)، العدد (٦٦٢)، لصاحبها: أحمد حسن الزيات، والمقال منشور بالمجلة بتاريخ ١١ مارس ١٩٤٦م، ومرفوع على الإنترنت على موقع: ويكي مصدر .

(٢) سورة البقرة، الآية (٢١٦) .

(٣)سورة التوبة، الآية (٤١) .

(٤) سورة الحج، الآية (٣٩) .

(٥) سورة الحج، الآية (٧٨) .

(٦) رواه البخاري في الصحيح، كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير، برقم (٢٧٨٥)، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، برقم (١٨٧٨) .

طِوَلِه فيكتب له حسنات) [١]، وقوله ﷺ: ﴿ لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ﴾ [٢] .

كما أن الإسلام لا يقوم بهذه المشروعية إلا في ظل ظروف معينة وأسباب محدودة، ولا يسمح في غيرها .

فمن هذه الظروف ... الدفاع عن النفس، أو صد عدوان متوقع أو دفع عهد نكث، أو فتح طريق دعوة قد مُنع، أو خروج فئة باغية على الإمام، أو منع حق من حقوق الله تعالى كالزكاة وغيرها، أو أي حالة من حالات الاستثناء التي شرع فيها الجهاد، ويكون الأمر به ضمن ضوابط معينة، قد فصلها علماء الإسلام في دواوينهم المؤلفة في ذلك .

الفـرق بين الجهاد والاعتـداء:

هناك فرق كبير بن الجهاد والقتال المسلح، حيث إن مفهوم الجهاد يعني استنفاذ الجهد لمعرفة المبدأ الإسلامي والانطلاق به بعد ذلك، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [٣] .

فمفهوم الجهاد هو مفهوم إسلامي سَامٍ يقصد به استنفار كل الإمكانات المتاحة للتفاعل مع الإسلام فَهْمًا وتَطْبِيقًا ونشرًا وتعليمًا، ولذلك رتب له الشراع آدابًا، وأمر باعتبارها، نذكر منها ما يلي:

١ . عدم الغدر وعدم قتل من ضَمِنَهُ مُسْلِمٌ أو أمّنَهُ على حياته .

٢ . عدم قتل الأطفال والنساء والشيوخ والرهبان الذين لم يشاركوا في المعركة.

---

(١) "لا أجده" أي لا أجد عملاً يعدل الجهاد، "تفتر" تنقطع، والمعنى: أن المجاهد في عبادة مادام في خروجه فلا يقابله إلا من استمر في العبادة من صيام أو غير ذلك، "لَيَسْتَنُّ" يمرح بنشاط من الاستنان وهو العدو، "طِوَلِه" حبله الذي يشد به من طرف ويمسك طرفه الآخر ثم يرسل في المرعى، "فيكتب له حسنات" يكتب مرحه ورعيه حسنات لصاحبه .

(٢) أخرجه الشيخان البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: والغدوة والروحة في سبيل الله، برقم (٢٧٩٢)، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الغدوة والروحة في سبيل الله، برقم (١٨٨٠) .

(٣) سورة العنكبوت، الآية (٦٩) .

٣ . عدم التمثيل بجثث القتلى والتشهير بها .

٤ . دعوة الكفار إلى الإسلام قبل قتالهم .

٥ . عدم حق العداء بالنار إلا في حالة الضرورة .

٦ . أن يكون القتال تحت قيادة الإمام .

٧ . عدم السرقة، وغير ذلك من الآداب التي تجعل الإحسان واضحًا وظاهرًا في هذه المعرفة .

أما القتال فهو نوع من الجهاد، وهو وسيلة محدودة في ظروف محدودة قد لا ترتبط بآداب ولا قيم ولا أخلاق نظراً لسعي كل طرف إلى تحقيق الغلبة على الآخر دون اعتبار للقيم أو تحقيق للأهداف السامية .

ومن أراد أن يتجلى له الفرق بصورة جلية فليقرأ هذه التوجيهات النبوية التي كان يزود بها النبي ﷺ من يرسلهم للجهاد في سبيل الله، فقد كان ﷺ إذا أرسل سرية يقول لهم: (سيروا باسم الله، وبالله وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله، ولا تغدروا ولا تغلوا، ولا تمثلوا ولا تقطعوا شجرًا إلا أن تضطروا إليها، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا صبيًا، ولا امرأة، وأيما رجل من أدنى المسلمين أو أقصاهم نظر إلى أحد من المشركين فهو جار له حتى يسمع كلام الله، فغن تبعكم فأخوكم في دينكم، وإن أبي فاستعينوا بالله، وأبلغوه إلى مأمنه) [1] .

التصدي للمعتدين مهما كانت عدتهم:

عندما يعتدي العدو على واحد من أفراد الأمة الإسلامية، أو يعتدي على عقيدة الدولة الإسلامية وتعاليمها بالخيانة والقتل والتظاهر على المسلمين ... فهل يقف المسلمون مكتوفي الأيدي دون دفاع؟

وهل في الحياة البشرية كلها قديمها وحديثها . أمة لها رسالة أو تعاليم تحترم أفراد أمتها إذا اعتدى عليهم في ذواتهم أو في عقائدهم ... هل

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج١ ص٤٠٨ .

تصمت ولا تفعل شيئًا؟ .

إن مبدأ القتال مشروع بالفطرة، ومشروع بالضرورة الجماعية لحماية الكرامة الإنسانية، وحفظًا للقيم والمبادئ الإسلامية .

ولهذا: جعلت الأمة الإسلامية القتال واحدًا من منهجية العلاقات الدولية مع اليهود والنصارى وغيرهم، حدث هذا في كثير من الغزوات الحربية والمواقف القتالية، اخترنا منها لضيق المقام ... إجلاء بني قينقاع وبني النضير من المدينة، وهؤلاء من اليهود، وغزوتي مؤتة وتبوك، وهؤلاء من النصارى .

التصدي لمؤامرات اليهود وخياناتهم (الجبهة الداخلية):

١ ـ جلاء بني قينقاع:

خلع اليهود برقع الحياء عن وجوههم، وربقته من أعناقهم، ونقضوا العهود والمواثيق التي كتبت بينهم وبين رسول الله ﷺ، وجاهروا بالعداء حتى ضاقت المدينة وصاحبها ﷺ بأفعالهم .

ومع ذلك: كان ﷺ يقابلهم بالحلم والأناة، حتى أسفروا عن حقدهم وعداوتهم وكشروا عن أنيابهم، وبعثوا سهام الغدر ظاهرة، فلم يكن بعد ذلك بد من المجابهة العسكرية، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وكان أول من جابه بالعداء هم يهود بني قينقاع .

بدأ يهود بني قينقاع بفعلتهم الرذيلة ومكرهم الشيء الخبيث، وكشفهم لسوأة المرأة المسلمة في سوقهم وقتلهم للمسلم الذي نصرها، وتوعدهم لرسول الله ﷺ بعد غزوة بدر بالنصرة عليه، وكان هذا بمثابة شرارة النقض التي تطايرت لتحرق قلوبهم وأكبادهم قبل أن تحرق بيوتهم، وعهودهم، ومواثيقهم .

فهم أول من كشفوا عن حقدهم، وأبانوا عن كيدهم للإسلام وأهله، فكظم المسلمون غيظهم، وانتظروا ما تتمخض عنه الليالي والأيام من مكر

اليهود وقد سعوا إلى حتفهم بظلمهم وحقدهم .

جمعهم رسول الله ﷺ في سوق بني قينقاع وقال لهم: (يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشًا، فقالوا له يا محمد: لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش لا علم لهم بالحرب، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس) .

ولم يكن أمام اليهود سوى حصونهم، يستترون فيها من خيبة أملهم، شدة جبنهم، لأنهم لا يقدرون على مجابهة القتال، ومواجهة المسلمين، وهذا هو حالهم في كل حين .

فحاصرهم رسول الله ﷺ، وشدَّد عليهم الحصار، حتى نزلوا على حكمه، وكان يرى فيهم القتل ... لولا أن تدخل عبد الله بن أبيَّ بن سلول وألَّح على رسول الله ﷺ، حتى غضب رسول الله ﷺ ورأوا لوجهه ظلًلا، فقال هم لك، لا بارك الله لك فيهم ... على أن يخرجوا من المدينة ولا يجاورونا بها، فرحلوا إلى أذرعات بالشام، ولم يبقوا هناك طويلاً حتى هلك أكثرهم) [1] .

وعلى كل: فهم قوم ألفوا الغدر وأُشربوا في قلوبهم الحقد، وكأن نبت الشيطان يخرج من قلوبهم وليس لهم من علاج إلا قطع الرؤوس الماكرة لولا وقفة هذا المنافق.

٢ ـ بنـو النضـير:

ما إن تنفس المسلمون الصعداء بعد جلاء بني قينقاع واستراحوا من كيدهم وشرهم ... حتى سعى يهود بني النضير سعيًا خبيثًا للخلاص من

(١) راجع في ذلك:

*السيرة الحلبية، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج ٢ ص ٢٨٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الثانية، ١٤٢٧هـ .

*نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، رفاعة رافع الطهطاوي، ص ٢٤٥، دار الذخائر، القاهرة، ط. الأولى، ١٤١٩هـ .

رسول الله ﷺ، والمسلمين .

فوجدوها فرصة سانحة أمامهم حينما جاءهم النبي ﷺ إلى ديارهم في أحد شئونه تبعًا لما جاء في المعاهدة التي أخذت عليهم، فتحرك الدم النجس في عروقهم فهموا بقتله ﷺ .

فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه . وكان ﷺ جالسًا بجوار جدارٍ لهم . فمن يعلوا هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك أشقى القوم عمرو بن جحاش، وما هي إلا لحظات لتنفيذ الخطة حتى أخبر رسول الله ﷺ من السماء، فقام ورجع إلى المدينة ورجع معه أصحابه، وأخبرهم بما دبره يهود، ثم أمر ﷺ المسلمين بالتهيؤ لحربهم، فخرج إليهم فحاصرهم رسول الله ﷺ ستة أيام، وأمر بقطع النخيل وإحراقهم إذلالاً لهم، فنادوا: أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه فما بال قطع النخيل .

فأخذوا يتجهزون للرحيل، ولكن عبد الله بن سلول رأس المنافقين أرسل إليهم أن اثبتوا ونحن ننصركم على محمد، فعادت لهم ثقتهم، وأرسلوا لرسول الله ﷺ أنهم لن يخرجوا، فشدد عليهم الحصار، وتوعد كل من ينضم إليهم بالويل والهلاك، فنقض المنافق وعده معهم، فجد عليهم الأمر ووقع الرعب في قلوبهم، ولم يستطع أحد أن يسوق لهم خيرًا، أو يدفع عنهم شرًا، وكان المسلمون يرون فيهم القتل، لولا تدخل المنافقين، فنزل رسول الله ﷺ عن حكمه فيهم وأجلاهم عن المدينة، ولهم ما حملت الإبل من أموال ماعدا السلاح .

وعلى كل: فقد خرجوا ... وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ورسوله ومن الناس، وذلك بسبب حقدهم وغدرهم برسول الله ﷺ وتآمرهم على قتله، دون أن ينغصوا على المسلمين حياتهم،

أو يتخلصوا من رسول الله ﷺ، هذا: ونكتفي بذكر هؤلاء من اليهود وذلك لضيق المقام، ففي ذكر من ذكرنا كفاية عن اليهود، لنرى الوجه الآخر عن النصارى، متمثلاً في غزوة مؤتة، وغزوة تبوك .

التصدي للروم (الجبهة الخارجية):

١ ـ غزوة مؤتة:

استراح المسلمون من العمل العسكري ضد الوثنية بعد صلح الحديبية حيث وجه رسول الله ﷺ بدبلوماسيته سفراءه إلى الملوك والرؤساء خارج الجزيرة العربية، وإلى القبائل والعشائر داخلها، فكتب لهم كتبًا يدعوهم فيها إلى الإسلام، وكان ممن أرسل إليه أمير بصري: أرسل إليه الحارث بن عمير الأزدي ﷺ، فلما بلغ مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فأوثقه بالحبال وقتله لما علم أنه من رسل النبي ﷺ وسفرائه .

(وهذا عمل سافر خارج على حدود الأخلاق والعرف السياسي والدبلوماسي في القديم والحديث، فالرسل لا تسب ولا تقتل، لكن هذا ما حدثن؛ فهل تترك الدولة الإسلامية حقها في تأديب هؤلاء المارقين على القيم والأخلاق من جانب، والمعتدين على كرامة المسلمين من جانب آخر) [١] .

لهذا: جهز رسول الله ﷺ جيشًا ووجهه إلى مؤتة لتأديب هؤلاء المارقين بقيادة زيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة، فاستشهد النفر الثلاثة، فأخذ الراية خالد بن الوليد وقاتل المشركين وهزمهم شر هزيمة كما جاء في كتاب التاريخ والسير .

يقول ابن سعد: (إن خالدًا ﷺ لما أخذ اللواء حمل على القوم

(١) الدعوة الإسلامية في عهدها المدني، د/ رؤوف شلبي، ص ٣٥٦، دار القلم، الكويت، ط. الثالثة .

فهزمهم الله أسوأ هزيمة حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا وأظهر الله المسلمين) [١] .

وسبب ذلك: أن خالدًا ﷺ عندما أخذ الراية نظم صفوف المقاتلين فجعل مقدمة الجيش ساقة، والساقة مقدمته، وميمنته ميسرة، وميسرته ميمنة، فظن المشركون مجيء مددٍ للمسلمين، فرعبوا وانهزموا فقتلوا قتلة لم يقلتها قوم) [٢] .

٢ ـ غـزوة تبـــوك:

بلغ المسلمون أن الروم جمعت جموعها، وأجلبت إلى جانبها قبيلة: لخم، وجذام وغيرهم من نصارى العرب لمحاربة المسلمين .

فندب رسول الله ﷺ الناس للخروج، فأقبل المسلمون من كل صوب وحدب، وتوافد الأغنياء بصدقات أموالهم، وتجهز جيش العسرة وصادف ذلك ... أنه كان في المدينة رجل يُقال له أبو عامر الخزرجي كان قد تنصر وأصبح قسيسًا، وأشرب في قلبه الحقد والغيظ والكراهية لرسول الله ﷺ والمسلمين، وأظهر لهم العداوة جهارًا، فخرج فارًا إلى مكة يمالئ القرشيين على حرب رسول الله ﷺ .

ولما رأى أمر رسول الله في ارتفاع وازدهار وازدياد، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي، فوعده ومناه بذلك، فكتب القسيس (أبو عامر) إلى المنافقين في المدينة بذلك، وأمرهم أن يتخذوا معقلاً يقدم عليهم ومن معه فيه، ويكون مرصدًا له بعد ذلك .

فشرع المنافقون في بناء مسجد الضرار بَقُربٍ مِنْ مَسْجِدِ قباء، وفرغوا منه قبل أن يخرج ﷺ إلى تبوك، وجاءوه ليصلى فيه ليحتجوا بذلك

(١) طبقات ابن سعد، ج٢ ص٩٩، م. س .

(٢) السيرة الحلبية، ج٣ ص ٩٧، م. س .

على إقراره وإثباته، فعصمه الله من الصلاة فيه، وقال لهم: (إني على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله) .

فخرج رسول الله ﷺ فيما يقارب الثلاثين ألفًا من المسلمين، لتأديب الروم، وانتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك، فوجدهم قد تفرقوا وفروا لشدة ما وقع في قلوبهم من رعب وخوف .

فجاء إلى رسول الله ﷺ حاكم "إيلة" واسمه يوحنا، فصالح رسول الله على الجزية، وتوافد عليه أهل "جرباء" و"أذرح" وهم من النصارى، فأعطوه كذلك الجزية، وكتب رسول الله ﷺ كتابًا لهم بذلك .

وفي عودته من تبوك أخبره جبريل بخبر مسجد الضرار، وأن أصحابه ما أرادوا من وراء ذلك إلا تفريق جماعة المسلمين، فأمر سول الله ﷺ بهدمه فهدم .

المسارعة بالدخول في الصلح إذا طلب العدو ذلك:

الأصل في سياسة العلاقات الدولية إنهاء الحروب وحقن الدماء، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [1]، لذلك حرص الإسلام كل الحرص على إبرام المعاهدات وقبول الصلح والالتزام بالشروط التي تملى عليهم في ذلك حتى ولو كانت مجحفة، لأجل ذلك جاءت المعاهدات على ضربين، إما أن تكون مؤقتة، أو دائمة، وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: المعاهدات المؤقتة:

هل تلك المعاهدة والمصالحة التي يحرص عليها المسلمون دائمًا ويسعون إليها لإطفاء نار الحروب، وحفظًا على حقن الدماء، وتأخذ هذه الموادعة والمصالحة ثلاثة صور هي كالتالي:

(١) سورة التوبة، الآية (٦١) .

١ ـ موادعة بدخول الأشهر الحـرم:

عندئذ يتوقف المسلمون عن القتال امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [١] .

فإن بادر المشركون بقتال المسلمين في تلك الأشهر الحرم: فعلى المسلمين رَدَّ الاعتداء ودفعه عنهم بالمثل دون زيادة، ويشترط في ذلك ملازمة التقوى، لقوله سبحانه: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [٢] .

فإذا انتهت الأشهر الحرم فللمسلمين أن يقاتلوا المعتدين لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [٣] .

٢ ـ موادعـة يطلبها العـدو:

وذلك بطلب مدة يقف فيها القتال حتى يستعيد قوته، أو يُنظم صفوفه أو يُضمد جراحه، وكل ذلك وارد، فعلى المسلمين عندئذ وقف القتال استجابة لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [٤] .

وهذا ما حدث للمشركين في صلح الحديبية، فقد بايع رسول الله ﷺ أصحابه تحت الشجرة على قتال المشركين، عندما ظنوا أن عثمان قد قتل، فجاء المشركون مفاوضين، وكتب سهيل بن عمرو مع رسول الله ﷺ معاهدة، تقضي بوضع الحرب بينهم لمدة تسع سنوات، فاستجاب رسول

(١) سورة التوبة، الآية (٣٦) .
(٢) سورة البقرة، الآية (١٩٤) .
(٣) سورة التوبة، الآية (٥) .
(٤) سورة الأنفال، الآية (٦١) .

الله وصالحهم على ذلك .

٣ ـ موادعة أمان وجوار:

وهذا ما يطلبه بعض أفراد جيش العدو، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [١] .

فإذا أمن رجل حر أو امرأة حرة ... كافرًا، أو جماعة ... صح أمانهم، ولم يجز لأحد من المسلمين قتلهم، والأصل في ذلك قول رسول الله ﷺ: ﴿ المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد على أقصاهم ﴾ [٢] .

ومن صور ذلك: أم هاني قد أجارت رجلين من المشركين، فأراد الإمام/ عليٌّ ﷺ قتلهما، وقال لها: أتجيرين المشركين على رسول الله ﷺ، فقالت: والله لا تقتلهما حتى تقتلني دونهما، ثم أغلقت دونه الباب، وجاءت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال: (ما كان له ذلك، فقد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنت) [٣]، تلك هي المعاهدات المؤقتة بصورها الثلاث .

□

(١) سورة التوبة، الآية (٦) .

(٢) سنن ابن ماجة، كتاب: الديات، باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم، ج ٢ ص ٨٩٥، رقم (٢٦٨٣) .

(٣) الدعوة الإسلامية في عهدها المدني، مناهجها وغاياتها، د/ رؤوف شلبي، ص ٤٥٩، دار القلم، ط. الثالثة .

ثانيًا: المعاهـدات الدائمــة:

أما المعاهدات الدائمة، والصلح التام، فيرجع إلى قوة المسلمين ومدى حرصهم على مصلحتهم، فإذا كانت لهم قوة فلا ينبغي لهم أن يوادعوا عدوهم، لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١) .

أما إذا لم يكن لهم قوة فلا بأس لهم بأن يوادعوهم ويصالحوهم، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (٢) .

وذلك لأن الإسلام لا يريد من وراء المعاهدات تسلطًا أو استعمارًا، ولا يتخذ ذلك تنكيلاً بالشعوب، فالناس في نظر الإسلام سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى، ولقد زادهم الله ﷻ بالإسلام تكريمًا، وحثهم دائمًا على الوفاء بالعهد، فقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ (٣) .

وقال سبحانه: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (٤) .

وحتى تكون المعاهدات وثيقة سلام ... فقد اشترط لها عدة شروط هي:

١ . أن تكون المعاهدة متفقة مع المبادئ والأوضاع الإسلامية .

٢ . أن تكون المعاهدة منصوص فيها بصراحة ووضوح أن السيادة للإسلام .

٣ . أن لا يَقْدُم المعاهد للمسلمين على عمل مع خصوم آخرين يخل بشروط هذه المعاهدة .

وبهذا يعطي الإسلام للسلام فرصة واسعة، ولأصحاب العقول فرصة

---

(١) سورة محمد، الآية (٣٥) .

(٢) سورة الأنفال، الآية (٦١) .

(٣) سورة النحل، الآية (٩١) .

(٤) سورة الإسراء، الآية (٣٤) .

للتفكير في واحد من اثنين:

١ . إما الدخول في الإسلام طواعية ورغبة من غير إدبار ولا إكراه، فالمبدأ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [١] .

٢ . وإما إعطاء الجزية .

ولعلنا أدركنا الآن كيف استفاد النبي ﷺ من مرحلة السلام التي وقعت بين صلح الحديبية وفتح مكة بعد أن نقضت قريش عهدها مع النبي ﷺ وحلفائه، كيف أمَّن دولته، وكيف وسَّع في الدعوة إلى دين الله، فخرج به خارج نطاف الجزيرة العربية، لأنه دين عالمي، جاء للناس كافة في شتى بقاع الأرض بموجب قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [٢] .

ولعلنا أدركنا أيضًا أن الأمة اليوم مطالبةٌ بالتأسي بالنبي القائد ﷺ في استغلال مراحل السلام التي تعيشها، فعلى الحكومات أن تسعى لتأمين مستقبل شعوبها وأن تحصن نفسها، وأن تبني حضارتها، وتؤمِّن للأجيال القادمة حياة كريمة يملؤها العزة والفخار، وأن تمتلك من قوة الردع الاستراتيجي ما يدفع عنها أطماع أعدائها، وكل من تسول له نفسه بالاعتداء عليها أو على كرامة أبنائها .

نسأل الله جل في علاه أن يهيئ لنا من أمرنا رَشَدَاً، وأن يلهمنا السداد والرشاد، وأن يوفقنا جل وعلا للهدى وأن يعصمنا من الجهل والردى، وأن يجعل أبصارنا مصروفة إلى طاعته وجوارحنا مشغولة بعبادته إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد ﷺ .

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥٦) .

(٢) سورة الأنبياء، الآية (١٠٧) .

المصـدر المراجـع

حسب الترتيب الأبجدي

أولاً: القرآن الكريم وعلومه:

اســم الكتـــاب	المؤلــف
١ . القرآن الكريم .	
٢ . أسباب النزول	للواحدي
٣ . تفسير القرآن العظيم	لابن كثير
٤ . تفسير المراغي	للدكتور/ مصطفى المراغي
٥ . الجامع لأحكام القرآن	للإمام/ القرطبي
٦ . الدر المنثور	للإمام/ السيوطي
٧ . فتح القدير	للإمام/ الشوكاني
٨ . الكشاف	للإمام/ الزمخشري
ثانيًا: كتب السنـة:	
٩ . الترغيب والترهيب	للإمام/ المنذري
١٠. جمع الجوامع	للإمام/ السيوطي
١١. سنن	للإمام/ أبي داود
١٢. سنن	للإمام/ ابن ماجة
١٣. سنن	للإمام/ الترمذي
١٤. السنن الكبرى	للإمام/ البيهقي
١٥. صحيح البخاري	للإمام/ البخاري
١٦. صحيح مسلم	للإمام/ مسلم
١٧. كشف الخفا	للعجلوني
١٨. المسند	للإمام/ أحمد بن حنبل

اســم الكتـــاب	المؤلــف
ثالثًا: كتب المعاجـم:	
١٩. لسان العرب	لابن منظور
٢٠. المعجم الوسيط	إبراهيم أنيس وزملاؤه
٢١. الموسوعة العربية الميسرة	الجمعية المصرية
رابعًا: كتب التاريخ والسير:	
٢٢. البداية والنهاية	للإمام/ ابن كثير
٢٣. التاريخ الكبير	للإمام/ الطبري
٢٤. الرحيق المختوم	للمباركفوري
٢٥. السيرة الحلبية	علي برهان الدين
٢٦. السيرة النبوية	للإمام/ ابن حجر
٢٧. السيرة النبوية	لابن هشام
٢٨. السيرة النبوية الصحيحة	د/ أكرم العمر
٢٩. الطبقات الكبرى	لابن سعد
٣٠. عيون الأثر	لابن سيد الناس
٣١. فقه السيرة	الدكتور/ البوطي
٣٢. الإمتاع	للمقريزي
خامسًا: الكتب العامــة:	
٣٣. إتحاف السادة المتقين	للزبيدي
٣٤. التعصب والتسامح	الشيخ/ محمد الغزالي
٣٥. حلية الأولياء	للإمام/ البيهقي
٣٦. خلق المسلم	الشيخ/ محمد الغزالي

اســم الكتـــاب	المؤلــف
٣٧. الدعوة الإسلامية	د/ رؤوف شلبي
٣٨. الدعوة الإسلامية	د/ محمد يوسف حمودة
٣٩. سماحة الإسلام	د/ أحمد الحوفي
٤٠. فتوح البلدان	للبلاذري
٤١. نضرة النعيم	نخبة من العلماء
٤٢. العلاقات العامة	لكلير أوستن
٤٣. الكامل في الضعفاء	لابن عدي
٤٤. المنتدى	مجلة كويتية